

الفصل الرابع

إعجاز المبالغة في القرآن الكريم وخصائصها

- (١) الإعجاز اللغوي والفقهي .
- (٢) الخصائص العامة للمبالغة في القرآن الكريم .

(١) الإعجاز اللغوي والفقهي .

أولاً : الإعجاز اللغوي

١ - معنى المبالغة في بعض أسماء الله تعالى

٢ - وصف النفس البشرية .

٣ - وصف الشيطان .

٤ - وصف النار وأهلها .

١ - معنى المبالغة

في بعض أسماء الله - تعالى - الحسنى وصفاته

أقدم في هذا المبحث معنى المبالغة في أسماء الله الحسنى ، لا سيما أن بعض العلماء أنكروا المبالغة في أسماء الله فضلاً عن إنكارهم إياها في القرآن الكريم .

ومن هنا آثرت أن أفرد الأسماء الحسنى في مبحث مستقل أدلّ فيه على ظهور المبالغة في هذه الأسماء وبيان إعجازها سواء في صفات الجمال أو في صفات الجلال .

مفهوم المبالغة في أسماء الله الحسنى :

من العلماء الذين أثبتوا " المبالغة " في أسماء الله الحسنى : الكشاف ، وأبو السعود ، والبيضاوي ، وأبو حيان ، وابن قيم الجوزية ، والراغب الأصفهاني ، والعكبري ، والصاوي ، وابن منظور ، وابن عاشور ، والأوسى وغيرهم ، وكل " نقلتُ عنه ما يُعضدُّ هذا الاتجاه .

بَيِّنُ أن بعض العلماء ذهب إلى أن صفات الله التي هي صيغة مبالغة كلها مجاز ؛ إذ هي موضوعة للمبالغة ، ولا مبالغة فيها ، لأن المبالغة هي أن تثبت للشيء أكثر مما له ، وصفات الله تعالى متناهية في الكمال لا يمكن المبالغة فيها ، والمبالغة — أيضاً — تكون في صفاتٍ تقبل الزيادة والنقصان ، وصفات الله تعالى منزّهة عن ذلك (١) .

والردُّ على هؤلاء أقول : أولاً : مَنْ الذي قال : إن المبالغة هي أن تثبت للشيء أكثر مما له !!؟ .. هذا ما يروجه من لا دراية له بفن المبالغة .

كما قالوا : إنها كذب .. إنها تهويل .. إنها لا تليق أن تكون فناً قرآنياً .. إلى آخر هذه الأقوال التي لا تستند إلى دليلٍ أو ذوق . وإنما المقصود بالمبالغة القوة والكثرة والزيادة والشدة والعمق .. الخ تلك التي تبدئ للمتلقي من خلال الوصول بالمعنى إلى أقصى غاياته ، وهي — كما هو معروف لكل باحث بلاغي — فن " مسطور في كل كتب البلاغة — قديمها وحديثها . وقد صدرت هذا المبحث بهذه الجمهرة من العلماء الذين أثبتوا المبالغة في القرآن الكريم ؛ بل في أسماء الله الحسنى على تباين مذاهبهم ، واختلاف مشاربهم ، فأين الدليل لأولئك المنكرين وأين قوة احتكامهم نقلاً أو عقلاً !!؟

ثانياً : صفات الله نعم هي متناهية الكمال ، ولا تقبل الزيادة والنقصان ولكن المبالغة في أسماء الله الحسنى كما أجاب " أبو حيان " في " البحر "

(١) انظر أسماء الله الحسنى — دراسة في البنية والدلالة — د . أحمد مختار عمر — الهامش رقم

عن هذا إنما تأتي من جهة تكثير المتعلق لا من جهة تكرير وقوع الوصف ، فقد قال في تفسير قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١) وهو بصدد شرح " عليم " { المبالغة بأحد أمرين إما بالنسبة إلى تكرير وقوع الوصف سواء اتحد متعلقه أم تكثر وإما بالنسبة إلى تكثير المتعلق لا تكثير الوصف ومن هذا الثاني المبالغة في صفات الله تعالى ، لأن علمه تعالى واحد لا تكثير فيه ، فلما تعلق علمه تعالى بالجميع كلية وجزئية دقيقة ، وجليلة ، معدومة ، وموجودة ، وصف نفسه تعالى بالصفة التي دللت على المبالغة ، وناسب مقطع هذه الآية بالوصف بمبالغة العلم ؛ لأن تقدم ذكر خلق الأرض والسماء والتصرف في العالم العلوي والسفلي وغير ذلك من الإماتة والإحياء ، وكل ذلك يدل على صدور هذه الأشياء عن العلم الكامل التام المحيط بجميع الأشياء { (٢) .

وقال - أيضاً - بصدد شرحه لقول الله تعالى ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٣) { بولغ - أيضاً - في الصفتين (التواب الرحيم) .. فجاء " التَّوَّابُ " على وزن فعَّال ، و " الرحيم " على وزن فعيل وهما من الأمثلة التي صيغت للمبالغة هذا كله ترغيب من الله تعالى للعبد في التوبة ، والرجوع إلى الطاعة وإطماع في عفوہ تعالى ، وإحسانه لمن تاب إليه " التَّوَّابُ " من أسمائه تعالى وهو الكثير القبول لتوبة العبد ، أو الكثير الإعانة عليها { (٤) .

وَيَبِينُ " أن منشأ المبالغة في اسم الله تعالى " التَّوَّابُ " يعود إلى المتعلق وهو كثرة قبوله لتوبة العبد ، أو كثرة الإعانة عليها ، وهذا هو مرجع المبالغة في الأسماء الحسنی ، فلا غضاضة ولا نكارة حينئذ من ورود المبالغة في أسمائه الحسنی وهذا هو الذي عليه الجمهور ولا عبرة لمن شذَّ عن هذا !

(١) البقرة / ٢٩

(٢) البحر المحيط ١ / ٢٨٣

(٣) البقرة / ٣٧

(٤) البحر المحيط ١ / ٣٢٠

بيان أثر المبالغة

أولاً: في صفات الجمال مثل " الحفيظ " و " القدير "

١ - " الحفيظ "

" الحفيظ " صيغة مبالغة من الحافظ ، ومن معانيه : العناية ، والرعاية ، والتعاهد ، والإحصاء ^(١) كما في قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ ^(٢) أي رقيب على أحوالهم وأعمالهم ومحصيها عليهم ثم يحاسبهم عليها .

واسمه - تعالى - " الحفيظ " من الأسماء التي تبعث في النفس الطمأنينة ، وتغمر القلب هدوءاً وسكينة ، فلا تخش ضياعاً لحسنة عملتها ، ولا قوتاً لبر صنعته ولا نسياناً لمعروف قدمته ، ولا تخش - كذلك - هلاكاً لجارحة ولا فقداً لدين ، ولا نفس ، ولا نسل ، ولا مال ؛ لأنه هو " الحفيظ " وكل ما فاتك من شيء فأنت مأجور عليه ، ولم تفقده ولم يضع منك ؛ لأنك تؤجر عليه ، وقد أحصاه الله باسمه " الحفيظ " .

فهو الذي أحاط عباده بكمال علمه ، وعنايته ، ولم يفته شيء في ملكه وملكوته ولم يغفل عن تدبير شيء من أمور خلقه .

فما من ذرة في صخرة أو في السموات أو في الأرض إلا وهو يعلم مكانها ، ومكوناتها ، وخصائصها ، وهو - سبحانه - يقوم بحفظها وصيانتها وفصلها عما يفسدها أو لا يتفق مع جنسها وخاصيتها .

(١) قال ابن منظور : { الحفيظ : من صفات الله - عز وجل - لا يعزب عن حفظه الأشياء كلها متقال ذرة في السموات والأرض ، وقد حفظ على خلقه وعباده ما يعملون من خير أو شر ، وقد حفظ السموات والأرض بقدرته ، ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم . وفي التنزيل العزيز : " بل هو قرآن مجيد " في لوح محفوظ " . قال أبو إسحق : أي القرآن في لوح محفوظ وهو أم الكتاب عند الله عز وجل .. والحفظة : الذين يحصون الأعمال ويكتبونها على بني آدم من الملائكة ، وهم الحافظون وفسي التنزيل : " وإن عليكم لحافظين " .. والمحافظة : المواظبة على الأمر . وفي التنزيل العزيز : " حافظوا على الصلوات أي صلوا في أوقاتها ، الأزهرى : أي واطبوا على إقامتها في مواعيقتها ويقال : حافظ على الأمر والعمل وتأبر عليه وحارص وبارك إذا داوم عليه . وحفظت الشيء حفظاً أي حرسه وحفظته أيضاً بمعنى استظهرته .. والحفيظ : المحافظ ، ومنه قوله تعالى : " وما أنا عليكم بحفيظ " ويقال : احتفظ بهذا الشيء أي احفظه { اللسان مادة (ح . ف . ظ)

فالحفيظ إذن هو البالغ الحفظ ، القادر على كل شيء ، العالم بكل شيء فهذا الاسم المقدس يوحى بكمال الذات والصفات والأفعال .

وقد تنوعت أقوال العلماء في فهم معنى هذا الاسم الجليل ، وعبر كل منهم عنه بأسلوبه الخاص على قدر علمه القاصر ونظره المحدود ، وعلى قدر صلته بربه عز وجل . فقد قيل : إن معناه : هو الذي حفظ أوليائه من مسالك الضلال بتوفيقه إلى مسالك الهدى ، وصان خواطرهم عن السياحة في غير ميادين الذكر والفكر ، وحماهم في حال المحنة من الشكوى ، وفي حال النعمة من البلوى .

وقيل : هو الذي حفظ أوليائه عن ملاحظة الأغيار ، وصان ظاهرهم عن موافقة الفجار . أي صان نظرهم وفكرهم عن ملاحظة غير الله عز وجل ، فلم يسألوا أحداً سواه ، وصان أعمالهم الظاهرة كلها عن الرياء والسمعة وُصنع أهل النفاق (١) .

ومن هنا فإن من معاني هذا الاسم العظيم أنه لا يعزبُ عن حفظه الأشياء كلها من متقال ذرة في السموات أو في الأرض ومن حفظه تعالى :

(١) حفظ السموات والأرض :

قال تعالى : ﴿ وَلَا يُؤَدُّهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (٢)

﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾ (٣)

﴿ إِنَّا زِينَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ

كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾ (٤)

(١) انظر : أسماء الله الحسنى د . محمد بكر إسماعيل / ١٥٤ ، ١٥٥

(٢) البقرة / ٢٥٥

(٣) الأنبياء / ٣٢

(٤) الصفات / ٦ ، ٧

(٢) حفظ الخلق :

قال تعالى : ﴿ وَيُرْسِلْ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ (١)

﴿ له معقبات ﴾ من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر

الله ﴿ (٢)

﴿ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ (٣)

(٣) حفظ الرسول — صلى الله عليه وسلم :

قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (٤) والعصمة أثر من آثار حفظ الله .

(٤) حفظ المنهج :

قال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ (٥)

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٦)

وحظ العبد من هذا الاسم الشريف " الحفيظ " أن يحفظ ما أمر الله تعالى حفظه ومنه :

(١) أن يحفظ أوامر الله وشرعه كما قال النبي — صلى الله عليه وسلم :
" احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك " (٧) .

(١) الأنعام / ٦١

(٢) الرعد / ١١

(٣) الطارق / ٤

(٤) المائدة / ٦٧

(٥) البروج / ٢١ ، ٢٢

(٦) الحجر / ٩

(٧) رواه الترمذي في سننه

(٢) أن يحفظ حدود الله كما قال تعالى : ﴿ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ (١)

(٣) أن يحفظ الصلاة :

قال تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى ﴾ (٢) .

(٤) أن يحفظ الفرج ويغض البصر :

قال تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ (٣) .

٢ - " القدير " (٤)

القدير - القادر - المقتدر : ثلاثة من أسماء الله - عز وجل - ورد ذكرها في القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ (٦) . وقال جل ثناؤه : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ (٧)

والمعنى أنه لا يعجزه شيء ؛ بل يستتب له ما يريد على ما يريد ؛ لأن أفعاله قد ظهرت ، ولا يظهر الفعل اختياراً إلا من قادر ، كما لا يظهر إلا من حي عالم ، وقدرته - سبحانه - تامة ، لا يمتنع عليه شيء ، ولا يحتجز بمنعة ولا قووة ، فهو قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل

(١) التوبة / ١١٢

(٢) البقرة / ٢٣٨

(٣) النور / ٣٠

(٤) قال ابن منظور : { القدير والقادر : من صفات الله عز وجل ، يكونان من القدرة ، ويكونان من التقدير . وقوله تعالى : " إن الله على كل شيء قدير " من القدرة ، فإله عز وجل على كل شيء قدير ، والله سبحانه مقدر كل شيء وقاضيه . ابن الأثير : في أسماء الله تعالى القادر والمقتدر والقدير ، فالقادر اسم فاعل من قدر يقدر ، والقدير فعل منه ، وهو المبالغ - والمقتدر مفتعل من اقتدر وهو أبلغ { اللسان مادة (ق . د . ر) .

(٥) الأحقاف / ٣٣

(٦) القيامة / ٤٠

(٧) الكهف / ٤٥

شيء عددًا ، وأحسن كل شيء خلقًا وإبداعًا ، وأحكم كل شيء تدبيرًا
وتصريفًا ، وأقام كل ما خلق ، وبراً ، ونراً على العدل المطلق والقسطاس
المستقيم (١) .

وهو القادر المطلق الذي خلق كل موجود خلقًا متفردًا به ، مستغنياً فيه
عن معاونة غيره ، أما العبد فله قدرة على الجملة لكنها ناقصة إذ لا يتناول
إلا بعض الممكنات ، ولا يصلح للاختراع أو الإبداع ؛ لأن الله – تعالى –
هو المبدع لمقدورات العبد (٢) .

مراتب التقدير :

التقدير الذي يجري على الإنسان إنما يجري على مراتب خمس :

أولاً : تقدير المقادير قبل خلق السموات والأرض : عن عبد الله بن
عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم –
يقول : " كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض
بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء " (٣) ويقول تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ
مِن مَّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ
نُنزِّلَهَا ﴾ (٤)

ثانياً : تقدير الرب تبارك وتعالى شقاوة العباد وسعادتهم وأرزاقهم
وأجالهم وأعمالهم قبل خلقهم ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه
قال : كنا في جنازة في بقيع الغرقد ، فأتى رسول الله – صلى الله عليه
وسلم – فقعده وقعدنا حوله ومعه مخصرة ، فنكس فجعل ينكت بمخصرته
ثم قال : " ما منكم من أحد ، ما من نفسٍ منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها
من الجنة والنار ، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة " قال : فقال : " من كان
من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل
الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة " ثم قرأ :

(١) انظر : أسماء الله الحسنى – د . محمد بكر إسماعيل / ٢٨٠

(٢) انظر : الجامع لأسماء الله الحسنى / ٢٢٧

(٣) رواه مسلم

(٤) الحديد / ٢٢

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنِيسِرْهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنِيسِرْهُ لِلْعُسْرَى ﴾ (١)

وفي لفظ: " اعملوا فكل " ميسر " لما خلق له " .

ثالثًا : الجنين في بطن أمه ، وهو تقدير شقاوته ، وسعادته ، ورزقه ، وأجله ، وعمله ، وسائر ما يلقاه ، عن عبد الله بن مسعود قال : حدثنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم : وهو الصادق المصدوق : " إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة ، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الله إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها " متفق عليه .

رابعًا : التقدير ليلة القدر : قال الله تعالى : ﴿ حم - والكتاب المبين * إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين * فيها يفرق كل أمر حكيم * أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين ﴾ (٢) وهي ليلة القدر لقوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ (٣) .

خامسًا : التقدير اليومي : قال الله تعالى : ﴿ يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن ﴾ (٤) .

ولعلك أدركت من خلال تلك القسمة مدى إحاطة علم الله بالمخلوقات ، وعظم الدقة المتناهية في التقدير أضف إلى ذلك التتابع الدقيق في قدر الله الذي يلاحق الإنسان ويحوطه في كل وقت دون أن يعوقه عن أداء

(١) الليل/ ٥ - ١٠

(٢) الدخان/ ١ - ٥

(٣) القدر/ ١

(٤) الرحمن/ ٢٩

الرسالة التكليفية التي أمر بها .

من مظاهر قدرة الله تعالى :

١- لكمال قدرته يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، ويجعل المؤمن مؤمناً ، والكافر كافراً ، والبر برًا ، والفاجر فاجرًا ، وهو الذي جعل إبراهيم وآله يدعون الله ويهدون بأمره ، وجعل فرعون وقومه أئمة يدعون إلى النار .

٢- لكمال قدرته لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء أن يعلمه إياه ، ولكمال قدرته خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وما مسه من لغوب ولا يعجزه أحد ” من خلقه ، ولا يفوته ؛ بل هو من قبضته أين كان ، فإن فرّ منه ، فإنما يطوي المراحل في يديه .

٣- ولكمال غناه استحال إضافة الولد والصاحبة والشريك والشفيع بدون إذنه إليه لكمال عظمته وعلوه ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولم تسعه أرضه ولا سمواته ، ولم تحط به مخلوقاته ، بل هو العال على كل شيء وهو بكل شيء محيط ، ولا تنفذ كلماته ولا تُبدّل ، ولو أن البحر يمدّه من بعده سبعة أبحر أمدادًا ، وأشجار الأرض أقلامًا ما نفذت كلمات الله .

٤- إنه سبحانه لا يعاقب أحدًا بغير فعله ، ولا يعاقبه على فعل غيره ، ولا يعاقبه ما لا يقدر على فعله ، ولا على فعل ما لا قدرة له على تركه . وأنه حكيم ” كريم ، جواد ، ماجد ، محسن ” ، ودود ، صبور ” ، شكور ، يطاع فيشكر ويُعصى فيغفر ، ولا أحد أحب إليه العذر منه .

والمقصود أنه سبحانه لكمال أسمائه وصفاته موصوف ” بكل صفة كمال ، منزّه ” عن كل نقص ، له كل ثناء حسن ، ولا يصدر عنه إلا كل فعل جميل ، ولا يُسمّى إلا بأحسن الأسماء ، ولا يُثنى عليه إلا بأكمل الثناء ، وهو المحمود المحبوب المعظم ، ذو الجلال والإكرام

على كل ما قدره وخلقه ، وعلى ما أمر به شرعه (١) .

ثانيًا : من صفات الجلال : " الجبَّار " (٢)

الجبَّار : اسم من أسماء الله تعالى ، ورد ذكره في القرآن الكريم : قال تعالى : ﴿ العزيزُ الجبَّارُ المتكبرُ ﴾ (٣) . وهو من أبنية المبالغة .

ويحتمل الاسم – في حق الله تعالى – عدة معانٍ أرجحها :

١- العالي الذي لا يُنال من العزِّ والامتناع ، ومنه نخلة جبَّارة : إذا طالَّت ، وعلت ، وقصرت الأيدي عن أن تتال أعلاها ؛ فهو العظيم الذي تحار في كنهه جلاله ، وجماله ، وكماله العقول ، ولا تحيط بمعانيه في صفاته البصائر ، ولا ترتقي إلى معرفة ذاته الأفهام .

٢- من الجبروت والتكبر ، قال الرازي : وإذا كان الجبروت والتكبر في حق الخلق مذموم فهو ممدوح في حق الله تعالى فوق كل الجبابرة ، فلا يجري عليه حكم حاكم ، وإنما الجميع منقادون له (٤) ، فهو الذي أجبر الخلق على ما أراد ، وحملهم عليه طوعاً وكرهاً ، فلا يقع في ملكه إلا ما يريد ، ولا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه .

(١) انظر الجامع لأسماء الله الحسنى / ٢٢٧ - ٢٢٩

(٢) قال ابن منظور : { الجبَّار : الله عزَّ اسمه القاهرُ خلقه على ما أراد من أمرٍ ونهي . ابن الأنباري : الجبار في صفة الله – عز وجل – الذي لا يُنال ، ومنه جبَّار النخل . الفراء : لم أسمع فعلاً من أفعَل إلا في حرفين وهو جبَّار من أجبرت ، ودراك من أدركت ، قال الأزهري : جعل جبَّاراً في صفة الله تعالى أو في صفة العباد من الإيجاب ، وهو القهر والإكراه لا من جبر .. وقيل : الجبَّار العالي فوق خلقه ، وفعل من أبنية المبالغة ، ومنه قولهم : نخلة جبَّارة ، وهي العظيمة التي تقوت يد المتناول . وفي حديث أبي هريرة : يا أمة الجبَّار ! إنما أضافها إلى الجبَّار دوق باقي أسماء الله تعالى لاختصاص الحال التي كانت عليها من إظهار العطر والبخور والتباهي والتبختر في المشي .. وتجبر الرجل : تكبر وفي الحديث : سبحان ذي الجبروت والملكوت ، هو فعلوت من الجبر والقهر . وفي الحديث الآخر : ثم يكون ملكٌ وجبروت ، أي عتو وقهر . اللحياني : الجبَّار المتكبر عن عبادة الله تعالى ؛ ومنه قوله تعالى : " ولم يكن جباراً عصياً " مريم / ١٤ .. والجبر : خلاف الكسر ، جبر العظم ، والفقير ، واليتيم يجبره جبراً وجبوراً وجبارة { اللسان مادة (ج . ب . ر) .

(٣) الحشر / ٢٣ ، وفي الحديث في ذكر النار : حتى يضع الجبَّار فيها قدمه ، قال ابن الأثير : المشهور في تأويله أن المراد بالجبَّار : الله تعالى ، ويشهد له في قوله في الحديث الآخر : حتى يضع فيها رب العزة قدمه . انظر القول الأسنى / ٩٥

(٤) انظر أسماء الله الحسنى – دراسة في البنية والدلالة / ٤٨

٣- المصلح لأمر الخلق ، المظهر للدين الحق ، الميسر لكل عسير ، الجابر لكل كسير من قولهم : جبر الكسر إذا أصلحه ، وجبر الفقير إذا أنعشه .

فهو سبحانه جل شأنه الجبار في عليائه ، يجبر ولا يُجار عليه ، وهو الغالب على أمره نواصي العباد بيده ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه وهو الجبار الذي أجبر الخلق جميعاً على تقديسه ، والتسبيح بحمده ، وحملهم على ذلك طوعاً وكرهاً .

فمن سبَّحه وقَدَّسه طوعاً فهو مُجبر على ذلك من حيث إنه ما وفق لذلك إلا بقدرته جل شأنه ، فمنه التوفيق ، ومنه الأجر على ما وفق العباد إليه ، والأمر كله منه وإليه (١) .

(١) انظر أسماء الله الحسنى د . محمد بكر إسماعيل / ٤٦

٢ - وصف النفس البشرية

صفات النفس التي وردت في القرآن الكريم عن طريق المبالغة إحدى عشرة صفة ، أبنتُ منها ثلاثاً في مبحث " صيغ المبالغة " في الفصل الأول وهي : البخل والقنوط والكفر ، وإليك الثماني الباقية ، تجدها هنا في منظومة شاملة عبّرت عن حقيقة النفس من خلال المبالغة . فهي تعطي بُعداً كاملاً عن طبيعة النفس في جزعها ، وجهلها ، وظلمها ، وتعجلها ، وفخرها ، وكنودها ، ومنعها ، وهلعها . ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ (١)

قال عز من قائل : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (٢)

فالإنسان في التصور الإسلامي هو هذان العنصران المختلفان ، مترابطين ممتزجين في كيان واحد . : قبضته من طين الأرض ، ونفخة من روح الله .

قبضة من طين الأرض تتمثل فيها عناصر الأرض المادية : الأوكسجين والإيدروجين والكربون والكلسيوم والفوسفور ... الخ . وتتمثل فيها رغائب الأرض ، وضرورات الأرض .

ونفخة من روح الله تتمثل فيها إشراقه الروح الصافية ، وقوة الوعي المدركة ، وقدرة النفس المريدة . وهذان معاً يكونان الإنسان .

فهو ليس قبضة طين خالصة ، تخضع للضرورات القاهرة من طعامٍ وشرابٍ وجنسٍ .. الخ ، خضوعاً لا تملك نفسها منه ، ولا تختار لنفسها سلوكاً معيناً إزاء هذه الضرورات .

وليس إشراقه روح خالصة ، طليقة من القيود ، ترفرف حيث تشاء ، لا تخضع لضرورة ، ولا تتأثر بقيود الزمان والمكان ، والوجود والفناء ، وثقله الجسم المنجذب إلى الطين ولكنه مزيج من الضرورة القاهرة والإشراقه الطليقة من القيود .

(١) فاطر/ ١٤

(٢) ص- / ٧١ ، ٧٢

مزيج قد يغلب عليه في بعض الأحيان أحد عنصريه ، فتظهر الضرورة الغليظة ، وعتامة الطين ، أو تظهر النورانية الشفيفة وخفة الشعاع . ولكنه أبداً غير منفصل بأحد عنصره عن عنصره الآخر في أية لحظة من اللحظات (١) .

إن في طبيعة تكوين الإنسان ، إذن ، استعداداً لفعل كل من الخير والشر ، استعداداً لاتباع أهوائه وشهواته البدنية ، والاستغراق في الاستمتاع بملذاته الحسية ورغباته الدنيوية ، واستعداداً للتسامي إلى أفق الفضيلة والتقوى والمثل الإنسانية العليا ، والعمل الصالح ، وما يحققه ذلك من سكينة نفسية وسعادة روحية . ومن الطبيعي أن تتضمن طبيعة الإنسان وقوع الصراع بين الخير والشر ، بين الفضيلة والرذيلة ، بين طاعة الله ومعصيته . وإن الاختبار الحقيقي للإنسان في هذه الحياة هو ما نتجه إليه إرادته ، وما يقع عليه اختياره هل سيختار طريق الخير أم طريق الشر ؟ ، طريق طاعة الله أم معصيته ؟ هل سينساق الإنسان وراء أهوائه وشهواته ومتع الحياة الدنيوية ، ويغفل عن ذكر الله ، وينسى اليوم الآخر ، أم هل سيتحكم في أهوائه وشهواته ويقوم بتحقيق التوازن بين مطالبه البدنية ، ومطالبه الروحية ؟

وحينما يختار الإنسان الملذات الدنيوية ، وينساق وراء أهوائه وشهواته ، وينسى ربه واليوم الآخر ، إنما يصبح في معيشتة أشبه بالحيوان ؛ بل أضل ؛ لأنه لم يستخدم عقله والذي ميّزه الله تعالى به على الحيوان .

قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٢)

والإنسان الذي يعيش هذا النوع من المعيشة يكون غير ناضج الشخصية ويكون أشبه بالطفل الذي لا يهمله إلا إشباع حاجاته ورغباته ، ولم تقو إرادته بعد ، ولم يتعلم بعد كيف يتحكم في أهوائه وشهواته ، فينساق

(١) انظر منهج الفن الإسلامي / ٣٣

(٢) الفرقان / ٤٣ ، ٤٤

وراء إشباعها ، ويصبح خاضعاً لتوجيه " نفسه الأمانة بالسوء " (١) .

وقد جاءت صيغ المبالغة في وصف النفس البشرية في القرآن الكريم مُبيّنة نوازع النفس المختلفة ، وانفعالاتها المتعددة راصدة تلك المبالغات التي تضعنا أمام حقيقة الإنسان ! من هو ذلك الكائن الذي حار في كنهه العلماء وعجز عن إدراك سره الباحثون ﴿ وَلَا يَنْبُئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (٢) .

(١) انظر : القرآن وعلم النفس - د . محمد عثمان نجدي - دار الشروق - ط الخامسة ١٤١٣هـ -
١٩٩٢م / ٢٣٠ ، ٢٣١

(٢) فاطر / ١٤

وجاءت هذه الصيغ على هذا النحو :

أولاً : صيغة " فعَّال " : ورد منها – وصفاً للنفس – لفظان هما :

" أمارة " (١) – " اللوامة " (٢)

أشرت – من قبل – في شيء من الاختصار لهذين اللفظين في مبحث " صيغ المبالغة " (٣) وأبسط – هنا – الحديث عنهما من خلال المنظومة الكاملة لطبيعة النفس البشرية وإيضاح " علم النفس " لحقيقتها.

قلت – أنفاً – إن الإنسان الذي لا يتحكم في أهوائه وشهواته ، وينساق وراء إشباع الرغبات والنزوات ، يصبح خاضعاً لتوجيه نفسه الأمارة بالسوء كما قال تعالى :

﴿ وَمَا أْبْرَىٰ نَفْسِي إِنْ النَّفْسِ لِأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٤)

والنفوس ثلاثة : أمارة بالسوء ، ولوامة ، وهي التي تلوم صاحبها ، ومطمئنة (٥).

(١) في قوله تعالى : " إن النفس لأمارة بالسوء " يوسف / ٥٢ ، مرة واحدة فقط .

(٢) في قوله تعالى : " ولا أقسم بالنفس اللوامة " القيامة / ٢ ، ووردت كذلك اللفظة مرة واحدة فقط .

(٣) انظر صيغ المبالغة في الفصل الأول .

(٤) يوسف / ٥٣

(٥) انظر التسهيل ٢ / ١٢٢ . ويرى بعض العلماء أن النفس الإنسانية واحدة لا ثلاث ، وإنما تحمل صفات متعددة بحسب ما تصطبغ به ، فهي مطمئنة بوصفها ، منيية إلى ربها ، وهي لوامة لكثرة تقلبها وترددتها بين الطاعة والمعصية ، وهي أمارة لازدياد أمرها بالسوء . انظر مناهج التربية – أسسها وتطبيقاتها – د . علي أحمد مدكور ، دار الفكر العربي ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م ص ٨٣ .

والنفس الأمارة : أدنى أنواع النفس ؛ فهي كثيرة الأمرة بالسوء لا تتفك عن أمر صاحبها بالسوء ، المرة تلو المرة ، ولانجاة للمرء منها إلا أن يعصم الله تعالى . ومجيء الوصف على صيغة المبالغة يوحي بمدى طغيان النفس - إن ساءت - على الإنسان ، فهي ميّالة بالطبع إلى الشهوات إلا أن يقمعها الإنسان ، مسترسلة دوماً في استعمال القوى والجوارح في أثرها كل الأوقات .

أما الإنسان الذي يكون في مرتبة أعلى من الكمال الإنساني ، بحيث يكون ضميره مستيقظاً ، فيستنكر ضعف إرادته وانقياده لأهوائه ، وشهواته وملذات الحياة الدنيوية مما يوقعه في الخطيئة والمعصية ، فيشعر بالذنب ، ويلوم نفسه على ما فرط منها ، ويتجه إلى الله تعالى مستغفراً تائباً ، فإنه يكون في هذه الحالة تحت تأثير " النفس اللوامة " وهو الوصف الثاني لبنية المبالغة كما قال تعالى : ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللّوَامَةِ ﴾ (١) وهي التي تلوم صاحبها في ترك الطاعة ونحوها ، فهي على هذا ممدوحة ، ولذلك أقسم الله بها ، عن مجاهد : تلوم على ما فات وتندم على الشر لِمَ فعلته ؟ وعلى الخير لِمَ لَمْ تستكثر منه (٢) .

ومجيء الوصف بهذه البنية مشعر " بكثرة وقوع اللوم من الإنسان المُقَصِّر والوصف قائم " على المدح ، وهذه النفس أفضل من الأولى " الأمارة " إذ هي مذمومة ، وأفضل منهما وصف آخر وإن لم يجيء على بنية المبالغة إلا أنه متمم " لقسمة النفس ألا وهي النفس المطمئنة " ببنية اسم الفاعل كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ (٣)

(١) القيامة / ٢

(٢) انظر البحر المحيط ٨ / ٣٧٥

(٣) الفجر / ٢٧ - ٣٠

ولعل النكتة في ورود الوصفين الأولين : " أمارة " ، " اللوامة " على بنية المبالغة ، ومجيء الوصف الثالث " المطمئنة " على بنية اسم الفاعل هو كثرة تعدد الأمر بالسوء ، والميل الفطري له في الوصف الأول وهو أمر " يحدث منها تباعاً وكذلك الوصف الثاني لتكرر اللوم كلما أحدث ذنباً أحدثت نفسه لوماً فهي متجددة ، مكررة " للوم وفقاً للسوء .

بينما النفس المطمئنة رسخت واستقرت على طاعة الله تعالى فناسب ذلك مجيء الوصف على بنية اسم الفاعل الدال على الثبات والاستقرار والله أعلم .

ويمكن أن نتصور هذه المفاهيم الثلاثة للنفس ، وهي النفس الأمارة بالسوء ، والنفس اللوامة ، والنفس المطمئنة على أنها حالات تتصف بها شخصية الإنسان في مستويات مختلفة من الكمال الإنساني التي تمر بها أثناء صراعها الداخلي بين الجانبين المادي ، والروحي ، فحينما تكون شخصية الإنسان في أدنى مستوياتها الإنسانية بحيث تسيطر عليها الأهواء والشهوات والملذات البدنية والدينيوية ، فإنها تكون في حالة ينطبق عليها وصف النفس الأمارة بالسوء . وحينما تكون الشخصية في أعلى مستويات الكمال الإنساني بحيث تكون متمسكة بتقوى الله تعالى وطاعته ، ومتحكمة في أهوائها وشهواتها ، ومحقة التوازن التام بين المطالب البدنية والروحية ، فإنها تكون في الحال التي تنطبق عليها وصف النفس المطمئنة . وبين هذين المستويين مستوى آخر متوسط بينهما يحاسب فيه الإنسان نفسه على ما يرتكب من أخطاء ، ويسعى جاهداً إلى الامتناع عن ارتكاب ما يغضب الله ويسبب له تائب الضمير ، ولكنه لا ينجح دائماً في مسعاه ، فقد يضعف أحياناً ويقع في الخطيئة . ويطلق على الشخصية في هذا المستوى النفس اللوامة .

ويجدر بنا أن نشير إلى أنه بعد نزول القرآن بنحو أربعة عشر قرناً من الزمان جاء " سيجمند فرويد " مؤسس مدرسة التحليل النفسي بنظرية في الشخصية ميز فيها ثلاثة أقسام للنفس ، يبدو في بعض وظائفها بعض أوجه الشبه بمفاهيم النفس الأمارة بالسوء ، والنفس اللوامة ، والنفس مطمئنة الواردة في القرآن ، غير أنه توجد في الحقيقة اختلافات كبيرة بين هذه المفاهيم الثلاثة للنفس في القرآن وبين أقسام النفس الثلاثة في نظرية " فرويد " (١) .

ذهب " فرويد " إلى أن النفس ثلاثة أقسام هي : الهو ، وأنا ، والأنا الأعلى . و " الهو " في رأي " فرويد " هو ذلك الجزء من النفس الذي يحوي الغرائز التي تتبع من البدن . وهو يُطيع " مبدأ اللذة " ويهدف - دائماً - إلى الإشباع من غير مراعاة للمنطق ، أو الأخلاق أو الواقع و " الهو " بهذا المعنى يبدو أنه يشبه مفهوم " النفس الأمارة بالسوء " .

و " الأنا الأعلى " هو ذلك الجزء من النفس الذي يتكون من التعاليم التي يلقاها الفرد من والديه ومدرسيه ومن قيم الثقافة التي ينشأ فيها ، ويصبح قوة نفسية داخلية تحاسب الفرد وتراقبه ، وتتقده وتهده بالعقاب ، وهو ما يعرف عادة بالضمير . ويرى " فرويد " أن " الأنا الأعلى " يمثل ما هو سام في الطبيعة الإنسانية ، وهو بهذا المعنى يبدو أنه يشبه مفهوم " النفس اللوامة " .

(١) انظر القرآن وعلم النفس / ٢٣٣

و " الأنا " هو ذلك الجزء من النفس الذي يقبض على زمام الرغبات الغريزية المنبعثة من " الهو " ويسيطر عليها ، فيسمح بإشباع ما يشاء منها ، ويؤجل ما يرى تأجيله ، ويكبت ما يرى ضرورة كبتة مراعيًا " مبدأ الواقع " أو العالم الخارجي بما يتضمنه ذلك من قوانين وقيم وأخلاق وتعاليم دينية .

ويقوم " الأنا " في رأي " فرويد " بالتوفيق بين " الهو " والواقع أو العالم الخارجي ، و " الأنا الأعلى " بحيث يسمح بإشباع رغباته الغريزية في الحدود التي يسمح بها الواقع ، ويحدّ من تطرف " الأنا الأعلى " بحيث لا يجعله يسرف في النقد والتهديد بالعقاب بدون مُبررٍ معقول .

وإذا نجح " الأنا " في وظيفته التوفيقية أمكن أن يتحقق للإنسان الاتزان والسواء والصحة النفسية . وعلى ذلك فإنه يبدو وجود شبه بين النتيجة التي يؤدي إليها نجاح " الأنا " في وظيفته وما يحققه للإنسان من اتزان وسعادة وبين حالة " النفس المطمئنة " التي يصل إليها الإنسان بالتغلب على أهوائه وبتحقيق التوازن بين مطالبه البدنية ومطالبه الروحية ، مراعيًا في ذلك " مبدأ الواقع " الذي يفرضه نظام الحياة في المجتمع المسلم من القيام بالعبادات المفروضة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والعمل الصالح ، واتباع قواعد الأخلاق الإسلامية .

وفي الحقيقة يوجد اختلاف كبير بين هذه المفاهيم الثلاثة للنفس كما وردت في القرآن الكريم وبين أقسام النفس الثلاثة في نظرية " فرويد " فمفاهيم النفس الأمانة ، والنفس اللوامة ، والنفس المطمئنة حالات مختلفة ، تتصف بها النفس أثناء صراعها الداخلي بين الجانب المادي والجانب الروحي في شخصية الإنسان ، وهي ليست أقسامًا مختلفة

للنفس كما أنها لا تتكون أثناء مراحل نمو معينة يمر بها الإنسان . أما مفاهيم " الهو " ، و " الأنا " و " الأنا الأعلى " فهي في نظرية " فرويد " أقسام مختلفة للنفس ، كما أنها تتكون في مراحل مختلفة من نمو الطفل " فالهو " هو نفس الطفل عقب ميلاده مباشرة ، إذ يكون الطفل واقعاً كليةً تحت تأثير متطلباته الغريزية . ثم تحت تأثير العالم الخارجي يبدأ يتكون من " الهو " جزء متميز عنه هو " الأنا " وهو الذي يقوم بالتحكم في الغرائز المنبعثة من " الهو " مراعيًا مقتضيات الواقع والعالم الخارجي . ومن التعامل والنواحي التي يتلقاها الطفل من والديه والثقافة التي ينشأ فيها يتكون " الأنا الأعلى " ، وهو الضمير الذي يحاسبه ويلومه ويؤنبه على ما يقوم به من أخطاء . ويقوم بين هذه الأقسام الثلاثة صراع يحاول فيه " الأنا " أن يوفق بين متطلبات " الهو " و " الأنا الأعلى " والعالم الخارجي . فإذا نجح في ذلك كان الإنسان سويًا ومتمتعًا بالصحة النفسية .

وبينما يقع الصراع النفسي في نظرية " فرويد " بين أقسام النفس الثلاثة ، فإنه يقع وفقًا لتصوير القرآن لطبيعة تكوين الإنسان بين الجانب المادي والجانب الروحي من شخصية الإنسان . وتنشأ تبعًا لنتيجة هذا الصراع حالات النفس الثلاث : النفس الأمارة بالسوء ، والنفس اللوامة ، والنفس المطمئنة (١) .

ولا شك أن ربط أقسام النفس تبعًا للجانب المادي والجانب الروحي على نحو ما جاء في القرآن الكريم أعدل وأوفق ، أما الجانب " العمري " للإنسان وربطه بأقسام النفس الثلاثة ، ففيه إقحام " لفترة الطفولة - مثلًا - في تلك القسمة ، وأنه يقع تحت تأثير متطلباته الغريزية أو كما سماها " فرويد " " الهو " ، بينما أطلق الشرع الإسلامي الحكيم على تلك الفترة : { الفطرة أو البراءة } ، فلا تكليف عليه البتة ، ولا حكم عليه في طاعة أو معصية حتى يبلغ الرشد ويتمكن من إدارة الصراع ووفق حرية الاختيار في اتباع المنهج الرباني أو ما سماه القرآن : { النفس المطمئنة والنفس اللوامة } أو النكوص عنه واتباع

(١) انظر القرآن وعلم النفس / ٢٣٢ - ٢٣٥

مسلك الهوى والغواية أو ما سماه القرآن : { النفس الأمارة } فما أجمل القرآن دليلاً وحكماً ! وما أعظم الإسلام ديناً وشرعاً وما هذا إلا قبسٌ من فيض الإعجاز القرآني البليغ .

ثانياً : صيغة فعيل : ورد منها – وصفاً للنفس – مثال ” واحد ” في القرآن الكريم بلفظ ” خصيماً ” ^(١) ، ومثالان بلفظ ” خصيم ” ^(٢) وقد أبنيت ذلك من قبل في ” صيغ المبالغة ” ^(٣) فلا داعي لإعادته هنا .

ثالثاً : صيغة فاعول : ورد منها – وصفاً للنفس – اثنا عشر وصفاً هي :

جزوعاً ^(٤) – جهولاً ^(٥) – ظلوماً ^(٦) – عجولاً ^(٧) – فخوراً ^(٨) – فتوراً ^(٩) – قنوطاً ^(١٠) – كفوراً ^(١١) – كنوداً ^(١٢)

-
- (١) في سورة النساء / ١٠٥
 - (٢) في سورة النحل / ٤ ، وفي سورة يس ~ / ٧٧
 - (٣) انظر صيغ المبالغة – في الفصل الأول .
 - (٤) ورد في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : ” إذا مسَّ الشرُّ جزوعاً ” المعارج / ٢٠
 - (٥) ورد في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : ” وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ” الأحزاب / ٧٢
 - (٦) ورد في القرآن الكريم مرة واحدة بهذا اللفظ في قوله تعالى : ” إنه كان ظلوماً جهولاً ” الأحزاب / ٧٢ وأخرى بلفظ ” ظلوم ” في قوله تعالى : ” إن الإنسان لظلوم كفار ” إبراهيم / ٣٤
 - (٧) ورد في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : ” ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً ” الإسراء / ١١
 - (٨) ورد في القرآن الكريم ثلاث مرات هي : قوله تعالى : ” ليقولن ذهب السينات عني إنه لفرح ” فخور ” هود / ١٠ وقوله تعالى : ” إن الله لا يحب كل مختال فخور ” لقمان / ١٨ ، وقوله تعالى : ” والله لا يحب كل مختال فخور ” الحديد / ٢٣
 - (٩) ورد في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : ” وكان الإنسان فتوراً ” الإسراء / ١
 - (١٠) ورد في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : ” وإن مسَّ الشرُّ فينوس قنوطاً ” فصلت / ٤٩
 - (١١) ورد في القرآن الكريم بهذا اللفظ ” كفور ” ثماني مرات هي : هود / ٩ ، الحج / ٣٨ ، ٦٦ ولقمان / ٣٢ وسبأ / ١٧ وقاطر / ٣٦ والشورى / ٤٨ والزخرف / ١٥ ، ولفظ ” كفوراً ” ورد أربع مرات هي : الإسراء / ٢٧ ، ٦٧ والإنسان / ٣ ، ٢٤
 - (١٢) ورد في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : ” إن الإنسان لربه لكنود ” العاديات / ٦

منوع (١) - هلوغ (٢) - يئوس (٣) .

درس علماء النفس هذه الأوصاف تحت ما يُسمَّى بـ " الانفعالات " (٤) فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يُزوّد الإنسان والحيوان بانفعالات تعينهما على الحياة والبقاء . فانفعال الخوف - مثلاً - يدفع المرء إلى تجنب الأخطار التي تهدد حياته . وانفعال الغضب يدفعه إلى الدفاع عن النفس ، وإلى الصراع من أجل البقاء . وانفعال الحب هو أساس تآلف الجنسين وانجذاب كل منهما إلى الآخر من أجل بقاء النوع .

وثمة علاقة كبيرة بين الدوافع (٥) والانفعالات . فالدوافع تكون عادة مصحوبة بحالة وجدانية انفعالية ، فحينما يشتد الدافع ويعاق عن الإشباع فترة من الزمن تحدث في الجسم حالة من التوتر . وتُصاحب ذلك عادة حالة وجدانية مُكثّرة ، وإشباع الدافع يكون مصحوباً بحالة وجدانية سارة . ثم إن الانفعال يقوم بتوجيه السلوك مثل الدافع . فانفعال الخوف يدفع الإنسان إلى الهرب من الخطر ، وانفعال الغضب يدفعه إلى الدفاع عن النفس ، وقد يدفعه إلى العدوان ، وانفعال الحب يدفعه إلى التقرب من موضوع حبه (٦) .

وجاء في القرآن الكريم " وصف " دقيق لكثيرٍ من الانفعالات التي يشعر بها الإنسان مثل الخوف ، والغضب ، والحب ، والفرح ، والكره

(١) ورد في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : " وإذا مسّه الخير منوعاً " المعارج / ٢١

(٢) ورد في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : " إن الإنسان خلق هلوغاً " المعارج / ١٩

(٣) ورد في القرآن الكريم بهذا اللفظ " يئوس " مرتين : في قوله تعالى : " ولئن أدقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس " كفور " هود / ٩

وقوله تعالى : " لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسّه الشر فيئوس " قنوط " فصلت / ٤٩ ، ولفظ " يئوساً " مرة واحدة في قوله تعالى : " وإذا مسّه الشر كان يئوساً " الإسراء / ٨٣

(٤) انظر : القرآن وعلم النفس / ٧١

(٥) الدوافع : هي القوى المُحرّكة التي تبعث النشاط في الكائن الحي وتبدئ السلوك وتوجهه نحو هدف أو أهداف معينة . والدوافع تؤدي وظائف ضرورية وهامة للكائن الحي فهي التي تدفعه إلى القيام بإشباع حاجاته الأساسية الضرورية لحياته وبقائه ، كما تدفعه إلى القيام بكثير من الأفعال الأخرى الهامة والمفيدة له في تواقفه . انظر القرآن وعلم النفس / ٢٧

(٦) انظر : القرآن وعلم النفس / ٧١

والغيرة ، والحسد ، والندم ، والحياء ، ... الخ أمّا ما جاء منها على طريق المبالغة لبيان الزيادة في الصفة وبلوغها الغاية فقد جاءت في الاثني عشر وصفاً السابقة مع ملاحظة تقارب وصفين هما " يئوس وقنوط " فيمكن وصفهما على العموم وصفاً واحداً ، فيُصبح الإجمالي أحد عشر وصفاً ، مُزجت فيها الانفعالات بالصفات الجيئة في الإنسان على النحو التالي وفقاً للترتيب الهجائي :

١- الجزع	" جزوعاً "
٢- الجهل	" جهولاً "
٣- الظلم	" ظلوماً "
٤- التعجل	" عجولاً "
٥- الفخر	" فخور "
٦- البخل	" قنوطاً "
٧- القنوط	" يئوس قنوط "
٨- الكفر	" كفور "
٩- الكنود	" كنود "
١٠- المنع	" منوع "
١١- الهلع	" هلوع "

شرحتُ منها من قبل في " صيغ المبالغة " ثلاثاً فقط هي : البخل والقنوط والكفر (١) . وإليك الصفات والانفعالات الثمانية الباقية التي تمثل الغرائز والركائز التي جبل عليها الإنسان ، والتي ينبغي أن يتخلص من بعضها تماماً ، ويتخفف من بعضها الآخر كما قال تعالى :

(١) انظر " صيغ المبالغة " في الفصل الأول .

﴿ وَمَنْ يُوقِ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١)

وقوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ (٢)

١- الجزع (٣)

الجزع أبلغ من الحزن ، فإن الحزن عام والجزع هو : حزن " يصرف الإنسان عمًا هو بصدده ، ويقطعه عنه (٤) ، والحزن - بعموم - انفعال مضاد للفرح والسرور ، وهو يحدث إذا فقد الإنسان شخصًا عزيزًا ، أو شيئًا ذا قيمة كبيرة ، أو إذا حلت به كارثة ما ، أو فشل في تحقيق أمر مهم .

ويبدو أن " الجزع " صفة " يقترن فيها الحزن بالخوف عند حدوث الشر للإنسان كما قال تعالى : " وإذا مسه الشر كان جزوعًا " (٥) .

قال أبو السعود : { أي مبالغًا في الجزع أكثرًا منه } (٦) ، وينجر هذا الوصف على كل إنسان - بهذا القدر الزائد في الصفة - لأنها من الطبائع الجبلية الراسخة في النفس ، لكن الناس يتفاوتون فيها على قدر إيمانهم وأنت ترى هذا شائعًا بين الناس عند وقوع البلوى بهم ، وإذا كان الجزع يبدو فيه الحزن مقترنًا بالخوف ، فقد جاءت الآيات القرآنية تطمئن المؤمنين بنفي الوصفين معًا عنهم كما قال تعالى :

(١) التغابن/ ١٦

(٢) الشمس/ ٧ - ١٠

(٣) ورد في القرآن الكريم - كما أشرت من قبل - مرة واحدة في قوله تعالى : " إذا مسه الشر جزوعًا " المعارج/ ٢٠ ، وفي اللسان : { الجزوع : ضد الصبور على الشر والجزع نقيض الصبر .. وقيل : إذا كثرت منه الجزع ، فهو جزوع " وجزاع " { لسان العرب مادة (ج . ز . ع) .

(٤) وأصل الجزع : قطع الحبل من نصفه ، يقال : جزعته فانجزع ، ولتصور الانقطاع منه قيل : جزع الوادي لمنقطعه ، ولانقطاع اللون بتغيره قيل للخرز المتلون جزع . وقيل للبصرة إذا بلغ الإرتطاب نصفها : مجزعة . انظر المفردات ١٩٥/

(٥) المعارج/ ٢٠

(٦) أبو السعود ٩ / ٣٢

﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١)

﴿ بَلِّغْ مَن آسَأَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿ (٢)

﴿ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣)

﴿ فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٤)

٢- الجهل (٥)

هذا هو الوصف الثاني ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٦)

فقد عُرِضَتِ الفرائضُ والتكاليفُ الشرعيةُ على السمواتِ والأرضِ والجبالِ فأعرضنَ عن حملها وخفنَ من ثقلها وشدتها ، والغرضُ تصويرُ عظمِ الأمانةِ وثقلِ حملها ، وعلى الرغمِ من هذا فقد تحملها الإنسانُ ومن هنا كان شديدَ الظلمِ لنفسه ؛ لأنه لم يفِ بها ولم يراعِ حقها ، فما أسهلها تحملاً وأصعبها أداءً ثم كان في الوقتِ ذاته مبالغاً في الجهلِ " جهولاً " بكنه عاقبتها قال البيضاوي : { كان ظلوماً لنفسه يتحملة ما يشق عليها جهولاً بوخامة عاقبته ، ولعل المراد بالأمانة العقل أو التكليف ... وكونه ظلوماً جهولاً لما غلب عليه من القوة الغضبية والشهوية وعلى هذا

(١) البقرة / ٣٨

(٢) البقرة / ١١٢

(٣) الأنعام / ٤٨

(٤) الأعراف / ٣٥

(٥) ورد في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : " إنه كان ظلوماً جهولاً " الأحزاب / ٧٢ ، والجهل على ثلاثة أضرب : الأول : وهو خلو النفس من العلم ، هذا هو الأصل . والثاني : اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه . والثالث : فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل ، سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً كمن يترك الصلاة متعمداً . انظر المفردات / ٢٠٩

(٦) الأحزاب / ٧٢

يحسن أن يكون علة للحمل عليه ، فإن من فوائد العقل أن يكون مهيمناً على القوتين حافظاً لهما من التعدي ، ومجازة الحد ، ومعظم مقصود التكاليف تعديلها وكسر سورتهما { (١) .

والجهل صفة لازمة للإنسان إلا أن يعمل على ضد ذلك ، فيقوم نفسه بالعلم ويتسلح بالمعرفة ، ولا ينفك عن طلب العلم مهما بلغ من عمر وأنفق من مال قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢)

٣ - الظلم (٣)

هذا هو الوصف الثالث من الصفات الثمانية كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعَدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنْ الْإِنْسَانُ لَظَلُومٌ ﴾ (٤) أي وإن تعدوا نعم الله عليكم لا تطيقوا حصرها وعدّها ، فهي أكبر وأكثر من أن يحصيها عدد ، والإنسان : اسم جنس ؛ أي إن الإنسان لمبالغ في الظلم والجحود ، ظالم لنفسه بتعديه حدود الله ، جحود لنعم الله قال الزمخشري : { (لظلوم) يظلم النعمة بإغفال شكرها (كقار) شديد الكفران لها وقيل ظلوم في الشدة يشكو ويجزع ، كفار في النعمة يجمع ويمنع } (٥) قال سيد قطب : { وهنا يُفتح كتاب الكون على مصراعيه فتنطق سطور الهائلة بنعم الله التي لا تحصى . وتتوالى صفحاته الضخمة الفسيحة بألوان هذه النعم على مد البصر : السموات والأرض والليل والنهار . الماء النازل من السماء والثمار النابتة من الأرض . البحر تجري فيه الفلك ، والأنهار تجري بالأرزاق .. هذه الصفحات الكونية المعروضة على الأنظار ، ولكن البشر في جاهليتهم لا ينظرون ، ولا يقرأون ولا يتدبرون ولا يشكرون : إن الإنسان لظلوم } كفار .

(١) البيضاوي ٢ / ٢٥٤

(٢) النحل / ٧٨

(٣) ورد في القرآن الكريم مرتين : مرة بلفظ " ظلوماً " في قوله تعالى : " إنه كان ظلوماً جهولاً " الأحزاب / ٧٢ ، وأخرى بلفظ " ظلوم " في قوله تعالى : " وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم " كقار " إبراهيم / ٣٤

(٤) إبراهيم / ٣٤

(٥) الكشاف ٢ / ٣٠٤

يبدل نعمة الله كفرًا ، ويجعل الله أندادًا ، وهو الخالق الرازق المُسخر
الكون كله لهذا الإنسان { (١) .

وتوحي بنية المبالغة " ظلومًا " بمدى فرطه في الظلم وتجاوزه حدود
الله ، فإن لم يبطش بالجارحة لا ينفك عن ظن أو حسد أو تشاؤم ، وإن لم
يظلم نفسه ظلم غيره ولذا فكل أنواع الظلم التي يُجريها الإنسان مُحرمّة :
ظلمه لربه بالكفر ، وظلمه للناس بالإيذاء ، وظلمه لنفسه بارتكاب الآثام .

٤ - التعجّل (٢)

التعجل صفة تنشأ عن حرص الإنسان على مصالحه وسرعة الاستحواذ
عليها والخوف في الوقت ذاته من ضياعها وفقدانها . والتعجل - بعموم -
صفة مذمومة إلا في حالات خاصة مثل التعجل بالصدقة والبر والتوبة
والزواج وتشجيع الجنّاة . قال تعالى : ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالْإِثْمِ دُعَاءَهُ
بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ (٢) أي يسارع إلى كل ما يخطر بباله متعاميًا
عن ضرره أو مبالغًا في العجلة يستعجل العذاب وهو آتية ، لا محالة ،
ففيه نوع تهكم به ، وعلى تقدير حمل الدعاء على أعمالهم ، تحمّل العجولية
على اللج والتمادي في استيجاب العذاب بتلك الأعمال ، وعلى الثاني أن
القرآن يدعو الإنسان إلى ما هو خير ، وهو في بعض أحيانه - كما عند
الغضب - يدعو الله تعالى لنفسه وأهله وماله بما هو شر ، وكان
الإنسان بحسب جبلته عجولاً ضجرًا ، لا يتأتى إلى أن يزول عنه

(١) الظلال ٤ / ٢١٠٦

(٢) ورد في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : " ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان
عجولاً " الإسراء / ١١

في اللسان : { العَجَل والعَجَلَة : السرعة خلاف البُطء .. والاستعجال والإعجال والتعجل واحد : بمعنى
الاستحاثات وطلب العجلة وأعجله وعجله تعجيلًا إذا استحثه ، وقد عَجِلَ عَجَلًا وعَجِلَ وتعَجَّلَ .
واستعجل الرجل : حثه وأمره أن يعجل في الأمر { اللسان مادة (ع . ج . ل) .

(٣) الإسراء / ١١

ومن ناحية أخرى تلمح الصيغة " صيغة المبالغة " " عجولاً " إلى الوقع السريع للإنسان في مُعْتَرِك الحياة ، فلعلَّ عينك لا تُخطئ الإيقاع الحركي المتلاحق له في وسائل المواصلات - مترو الأنفاق مثلاً - كيف يحاول الإنسان اقتحام عربة القطار بعد أن أذن بالرحيل وتحرك الباب للإغلاق على الرغم أن وقت الانتظار بين كل قطارين دقائق معدودة ، فلا تملك - ساعتها - إلا أن تقول على وجه اليقين والتحقق " وكان الإنسان عجولاً " .

٥- الفخر (٢)

أقترن " الفخر " في الآيات الثلاث : مرة بالفرح " لفرح " فخور " ومرتين بالاختيال : " مختال فخور " وكلها صفات مدمومة : الفرح : البطر بالنعيم والاعتزاز بها ، والاختيال : الكبر والزهو والتعالي ، الفخر : التعاضم والكبر .

والفخر انفعال يشعر به الإنسان إذا نال ما تمناه ، وحصل على ما يحب أن يحصل عليه من مال ، أو نفوذ ، أو نجاح ، أو علم ، إذ كان دأبه في الحياة وهدفه الذي كان يسعى إليه قد تحقق ، فصار مصدر فخر له وإشادة ، قال الراغب الأصفهاني : { الفخر : المباهاة في الأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه ، ويقال : له الفخر ، ورجل فاجر ، وفخور ، وفخير على التكثير } (٣) .

(١) انظر أبا السعود ١٥٩ / ٥ ، ويجوز أن يريد بالإنسان الكافر وبالذعاء استعجاله بالعذاب استهزاء كقول النضر بن الحارث : اللهم انصر خير الحزبين ، اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ... الآية فأجيب له فضرب عنقه صبراً يوم بدر . انظر البيضاوي ١ / ٥٦٥ ، ٥٦٦ لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

(٢) ورد في القرآن الكريم ثلاث مرّات هي : قوله تعالى : " ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح " فخور " هود / ١٠ ، وقوله تعالى : " إن الله لا يحب كل مختال فخور " الحديد / ٢٣ ، في اللسان : { الفخر والفخر : التمدح بالخصال .. وتفاخر القوم : فخر بعضهم على بعض . والتفاخر : التعاضم والتفخر : التعظم والتكبر .. وقوله تعالى : " إن الله لا يحب كل مختال فخور " الفخور : المتكبر .. وفي الحديث : " أنا سيد ولد آدم ولا فخر " ؛ الفخر : ادعاء العظم والكبر والشرف ؛ أي لا أقوله تبيحاً ، ولكن شكراً لله وتحديتاً بنعمه { اللسان ٣٣٦١/٥

(٣) المفردات ٦٢٧/

ويبدو أن للفخر حدين : حدٌ مسموح به وهو بمعنى التمدح بالخصال ، لا سيما عند تعرُّض الإنسان لإهانةٍ أو عند القتال ولا يقصد عند ذلك الكبر أو التعاضم وإنما يكون بغرض إظهار الشكر لله والتحدث بآلائه ونعمه ، ويأتي في هذا السياق حديث النبي – صلى الله عليه وسلم : " أنا سيد ولد آدم ولا فخر " ، وكذلك قول علي عند القتال :

أنا الذي سممتني أمي حيدرة . كليث غابيتِ كرية المنظره . أوفيهم بالصاع كيل السندره .

وحدٌ آخر مذموم وهو ما جاء في الآيات الثلاث .

ولعل بروز هذه الصفة يكون ظاهرًا عند الأطفال ، فكثيرًا ما يتباهون بأبائهم وأجدادهم وعائلاتهم ، بل لم تسلم أمتعتهم وطعامهم وسياراتهم أيضًا من الفخر والتباهي والتمادح .

وتبدو كذلك واضحة عند النساء فهن يحبين الفخر والثناء وكلمات الإطراء أكثر من الرجال إلا إذا تولى الرجال مناصب أو سلطانيًا فالجميع عند ذلك يتساوى في الفخر – حتى أصحاب الفطر السوية – إذا تعرضت ذواتهم للنقد ، أو جرحت كرامتهم بسخرية أو استهزاء على سبيل الزود عن كرامتهم ، والصد عن النيل منهم ، لذا فقد تداخلت في هذه الصفة دوافع الإباحة والتحرير معًا .

٦- الكنود (١)

الكنود هو الجحود وقيل : هو الكفور لنعمة الله ، كقولهم : أرض كنود : إذا لم تثبت شيئًا (٢) قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ (٣)

(١) ورد في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : " إن الإنسان لربه لكنود " العاديات / ٦ ، وجاء في اللسان : { كَنَدٌ يَكْنُدُ كَنُودًا : كفر النعمة ، ورجلٌ " كَنَادَ وَكَنُودٌ . وقوله تعالى : " إن الإنسان لربه لكنود " قيل : هو الجحود ، وهو أحسن ، وقيل : هو الذي يأكل وحده ، ويمنع رقهه ، ويضرب عبده .. وقال الكلبي : لكنود : لكفور بالنعمة ، وقال الحسن : لو أم لربه يُعَدُّ المصيبات وينسى النعم ؛ وقال الزجاج : لكنود ، معناه لكفور ، يعني بذلك الكافر { اللسان مادة (ك . ن . د) .

(٢) انظر المفردات / ٧٢٧

(٣) العاديات / ٦

وقيل المراد بالإنسان الجنس ، وقيل بعض أفراده . وهذا الأمر يتوقف في نظري على الإجابة عن السؤال : هل كل إنسان ينشأ نكارةً للنعم ، كنادًا للمن ، يَعدُّ المصائب ، وينسى المحامد ، في اعتقادي أن الوصف ينسحبُ على العاصي أو الكافر ، ولا ينسحب بحالٍ على المؤمن ، وهي كذلك ليست صفةً حيليةً ينشأ عليها كلُّ بني البشر . ومن هنا مال " أبو السعود " إلى أن الوصف متعلق ببعض الأفراد وليس كلهم (١) .

ولعلَّ صيغة المبالغة " كنود " من دلائل بُعد المؤمن عن هذا الوصف ، فإذا تسبَّى لبعض المؤمنين أن يجحد النعمة مرة أو مرتين نسيانًا أو جهلاً أو تقصيرًا فإنه لا يتوقع منه أن يدأب على ذلك ويكرره ويزيد فيه حتى يصل إلى حد المبالغة " كنود " ؛ لأن الكنُودَ ذاته يتنافى مع الإيمان ، فالإيمان إقرارٌ " بالحق والكنُود نكران .

٧- المنع (٢)

المنع صفة تنشأ عن شعور الإنسان بحب التملك والاستحواذ ، كذلك تنشأ نتيجة خوف الفقر والفقْد والقوت ، وهي صفة تؤدي وظيفة مهمة للإنسان حيث تساعد على حفظ ذاته ، ومصالحه ، وشئون أهله وذويه من الضياع .

ولكي تتبين لك تأثير هذه الصفة في الإنسان .. انظر أيهما يحب ويفرح .. عند الإعطاء أم عند الأخذ ؟ ! تجده في الأولى عند الإعطاء يحزن .. وعند الأخذ يفرح ويسعد .. صفة يشترك فيها كل إنسان ! إلا أن يبلغ في

(١) انظر أبا السعود ٩ / ١٩١

(٢) ورد في القرآن الكريم بهذه الصيغة " فعول " مرة واحدة في قوله تعالى : " وإذا مسَّه الخير منوعًا " المعارج / ٢١ ، بيد أن هذا الوصف ورد مرة أخرى في القرآن الكريم بصيغة فعَّال في قوله تعالى : " مناع للخير معتدٍ مريب " ق- / ٢٥ ، لكنه في هذا الوصف الأخير جاء مخصوصًا في سياق الأوصاف المذمومة للوليد بن المغيرة فقد كان كثير المنع للمال عن حقوقه المفروضة ، وقيل المراد بالخير الإسلام ، وذلك لما منع بني أخيه منه . انظر الكشاف ٤ / ٢٢ ، التحرير والتنوير مجلد ١٢ / ٢٦ / ٣١٢ ، البيضاوي ٢ / ٤٢٣ ، أبا السعود ٨ / ١٣١ ، البحر المحيط ٨ / ١٢٤ ، القرطبي ٩ / ٦٤١٦ .

وجاء في اللسان : { المنع : أن تحول بين الرجل وبين الشيء الذي يريد ، وهو خلاف الإعطاء .. ورجل منوع ، ومانع ، ومانع : ضنين مُمسك . وفي التنزيل : " مناع للخير " وفيه : " وإذا مسَّه الخير منوعًا " .. وفي الحديث : أنه كان ينهي عن عقوق الأمهات ومنع وهات ، أي عن منع ما عليه إعطاؤه ، وطلب ما ليس له { اللسان مادة (م . ن . ع) .

تهذيب النفس مبلغًا عظيمًا ، ويرتقي في تكميل أخلاقه مرتقىً يليغًا ..
ساعتها يفرح عند الإعطاء ويؤثرُ عند الأخذ لذا قال عز من قائل : ﴿ ومن
يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (١)

وقال تعالى في ذم " المنع " في صورة بيّنة : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى
عُنُقِكَ ﴾ (٢) فهذا هو " المنوع " الذي يمنع رفنذه عن الناس منعًا
باتًا ، قال ابن جزي : { استعارة في معنى غاية البخل ، كأن البخيل
حُبست يده عن الإعطاء وشُدَّت إلى عنقه } (٣) أي شُدَّت بالعُلِّ ، وهو القيدُ
من " السير " يُشدُّ به يد الأسير ، فإذا غُلَّت يده إلى عنقه تعذَّر التصرف
بها ، فتعطلَّ الانتفاع بها فصار مصدر البذل مُعطلًا فيه (٤)

بيد أنه ينبغي الحذر أن ثمَّ وصفًا آخرَ مذمومًا ، وهو الذي ضد المنع وهو
الإسراف ، فهو أيضًا وصف محذور كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ
الْبَسِطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (٥) لكن لِمَ هذا ؟ لماذا كان الجود المنشود
وسطًا بين صفتين مذمومتين هما : البخل والإسراف ؟ !

أقول ربما لأنهما ضد حفظ بقاء الإنسان على الأرض ، فالصفة الأولى :
" البخل " فيه هلاك " للفقراء والضعفة وذوي العوز والصفة الأخرى :
" الإسراف " فيه هلاك للنفس ، وضياع " للأهل .

(١) التغابن / ١٦

(٢) الإسراء / ٢٩

(٣) التسهيل / ٢ / ١٧٠

(٤) انظر التحرير والتتوير مجلد ٧ / ١٥٠ / ٨٥

(٥) الإسراء / ٢٩

٨- الهلع (١)

من معانيه : الحرص ، والجزع ، وقله الصبر ؛ فلا يصبر على خيرٍ ولا شر حتى يفعل في كل واحدٍ منهما غير الحق ، الجبن عند اللقاء ، وصفته كما قال تعالى : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ (٢)

والمراد بالإنسان - كما قال أبو السعود - الجنس ، والدليل الاستثناء بعدُ " إلا المصلين " (٣) .

فالهلع صفة يتصف به الإنسان ساعة اتقاء الأخطار التي تهدده ، مما يدفع به إلى النجاة بنفسه حباً للبقاء ونجاة من الهلاك - كما يتصور - ولعل أكبر سببين للهلع هما : خوف الجوع والفقر ، وخوف الموت والهلاك ومن هنا فهو يتقلب في الصفة شراً وخيراً ، فعند الشر كالمرض والفقر ولقاء العدو يفرع ويجزع ويجبن أشد الجبن ، وعند الخير كالسعة والصحة تراه منوعاً ضنيناً ممسكاً .

فهو إذن طبع انفعالي في الضدين ، لا ينخلع عنه ، ولا يتشج بسواه وعادة ما يصاحب انفعال الهلع تغيرات كثيرة في الوظائف الفسيولوجية الحشوية وفي ملامح الوجه ، ونبرات الصوت ، وهيئة البدن ، ويستجيب الإنسان عادة لمواقف الفزع التي تهدده ، وتثير فيه انفعال الخوف والهلع بالابتعاد عنها ، والهرب منها (٤) .

(١) ورد في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : " إن الإنسان خلق هلوعاً " المعارج / ١٩ وفي اللسان : { الهلوع : الحرص ، وقيل : الجزع وقلة الصبر ، وقيل : هو أسوأ الجزع وأفحشه .. ورجلٌ " هلع وهالع وهلوع وهلواع وهلواعة : جزع " حريص " . والهلوع : الخزن ، تميمية . والهلوع : الحزين . وشح هالع " : مُحِزن " . وفي التنزيل : " إن الإنسان خلق هلوعاً " قال معمر والحسن : هو الشتره ، وقال الفراء : الهلوع الضجور وصفته كما قال تعالى : " إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً " فهذه صفته والهلوع : الذي يفرع ويجزع من الشر .. قال أبو العباس المبرّد : رجل هلوع إذا كان لا يصبر على خير ولا شر حتى يفعل في كل واحد منهما غير الحق .. والهلع والهلاع والهلعان : الجبن عند اللقاء . وحكي يعقوب : رجل هلععة مثل همة إذا كان يهلع ويجزع ويستجيع سريعاً { اللسان مادة (ه . ل . ع) .

(٢) المعارج / ٢٠ ، ٢١

(٣) المعارج / ٢٢ ، انظر أبا السعود ٩ / ٢٢

هذا وإذا كان الهلع شديداً ومفاجئاً انتابت الإنسان حالة من الذهول لفترة من الوقت لا يستطيع فيها الحركة أو التفكير ؛ لذا قال عز من قائل عن حالة الذهول التي يسببها الخوف الشديد المفاجئ ليوم القيامة :

﴿ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتَهُمْ فَلَا يُسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ (١)

وقد رصدت بنية المبالغة " هلو عاً " شدة الجزع ، ومدى تأصله في نفس الإنسان ، فلا ينخلع عن تلك الصفة إلا المصلون .

واللفظة " وحيدة في القرآن : صيغة ومادة . في معاني القرآن للفراء : الهلوع : الضجور " (٢) .

السيطرة على الانفعالات

انقسمت هذه الصفات ، والانفعالات التي بلورتها صيغة المبالغة قسمين : الأول : صفات ينبغي التخلص منها كليةً مثل الكفر ، والكؤود ، والجهل ، والظلم ، والقنوط ، والهلع ، والجزع ، والمنع .

والآخر : صفات ينبغي التخفف منها لأنه لا ينفك عنها كليةً عادةً مثل التعجل ، والفخر ، والبخل . فمزال بعض التعجل ممدوحاً - كما أشرت من قبل - في الصدقة والتوبة ، وبعض الفخر مباحاً عند القتال والبخل لا يناقِي الإيمان كما أشار إلى ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم - " أَيْكون المؤمن بخيلاً ؟ ! قال نعم ! "

وعلى الرغم أن للانفعالات وظائف مهمة في حياة الإنسان ؛ إذ إنها تعينه على حفظ ذاته ، وبقائه ، إلا أن الإسراف فيها يضر بصحة الإنسان البدنية والنفسية ، فانفعال الخوف والجزع والهلع - مثلاً - مفيدٌ للإنسان لأنه يدفعه إلى اتقاء الأخطار التي تهدد حياته ، وسعيه إلى محاولات التخلص من مصادر الخطر ، والتحول إلى مواطن النجاة ، أما إذا أسرف الإنسان في خوفه ، فأصبح يخاف من أشياء كثيرة ليس فيها ما يهدده بأخطار

(١) الأنبياء/ ٤٠

(٢) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأرقم - د . عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) - دار المعارف - ط الثانية ١٩٨٧م / ٥٣٢

حقيقية ، فإن الخف يصبح في هذه الحالة مضرًا . ووجود مثل هذه المخاوف الكثيرة يعتبر في العادة دليلاً على اضطراب الشخصية . وقد بينت الدراسات الحديثة في الطب " النفسجسمي " (السيكوسوماتي) أن اضطراب الناحية الانفعالية عند الإنسان من الأسباب المهمة في نشوء كثير من أعراض الأمراض البدنية . وأشارت بعض الإحصائيات أن نسبة كبيرة من المرضى الذين يترددون عادة على عيادات الأطباء إنما هم يشكون أساساً من اضطرابات انفعالية ناشئة عن مشكلاتهم النفسية ، وأن ما يحتاج إليه هؤلاء المرضى ليس علاجاً طبياً وإنما هم في الحقيقة في حاجة إلى علاج نفسي . وقد أصبح من المعروف الآن بين الأطباء أن أحسن ما ينصح به هؤلاء المرضى هو التخلص من القلق . وقد سبق القرآن العلوم الطبية والنفسية الحديثة في الاهتمام بتوجيه الناس إلى التحكم في انفعالاتهم والسيطرة عليها لما في ذلك من فوائد صحية كثيرة لم تعرف معرفة علمية دقيقة إلا في العصر الحديث (١) .

وبعدُ فإذا حار العلماء اليوم في الكشف عن طبيعة الإنسان ، ودوافعه وانفعالاته ؛ فإن القرآن قد قدّم منذ أكثر من ألفٍ وأربعمئة عامٍ - بياناً شافياً عن : ما حقيقة الإنسان ؟ ما الطبائع الجيلية فيه ، وما أموره الاكتسابية ؟ ! بل رصد القرآن ما هو أعظم من هذا ... رصد مقدار هذه الصفات ... وهنا يبرز أداء " المبالغة " ، كما برزت في الشق الأول من هذا المبحث في " أسماء الله الحسنى " حيث عنت هنالك : الزيادة والفضل في هذه الأسماء مينةً على العباد في قبول التوبات وتنزل الرحمات . أقول : هنا برزت الصفات البشرية التي بلورتها المبالغة ، فجاءت بهذا البيان الكاشف عن انفعالات الإنسان وصفاته .. فهو شديد الجزع .. متمكن في الجهل بحكم المنشأ .. شديد الظلم وفقاً لاجتماع خلال من الصفات المذمومة فيه .. شديد التعجل .. عظيم الفخر .. زائد البخل مُفرط القنوط .. واسع الكفر .. شديد الكؤود .. فاحش المنع .. عظيم الهلع .

فالأصل أنه ينشأ وتلك الصفات المذمومة تعتوره ، فهي التي تؤصل

(١) انظر القرآن وعلم النفس / ١١٣

اتجاهاته وتفسّر ميوله ورغباته ، إلا أن يرحمه الله ويوفقه في التخلص من المذموم منها إلى المحمود ، ومن الغرق في أحوال النفس الأمّارة إلى النجاة إلى النفس اللوامة .. ثم إلى النفس المطمئنة .

ومن هنا أوصانا القرآن بعدم الخوف والجزع سواء من الفقر أو الموت وأوصانا بالتحكم في انفعال الغضب ودعانا إلى التخلص من الجهل والظلم بالدعوة إلى العلم والعدل ، كما دعا القرآن إلى التّوّدّة والطمأنينة ونبذ التعجل حتى إلى الصلاة " إذا أتيتم إلى الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وأنتم تمشون وعليكم السكينة .. " الحديث ، وذم الزهو والفخر كما عرض بالبخلاء ، ودعا إلى الجود والتصدّق ، وأوصانا بحسن الرجاء وعدم القنوط واليأس والكفر ، وفحش الحرص والمنع .

ومهما يكن من أمر ، فإن الله - تعالى - أوصانا بضبط انفعالاتنا ، والتحكم فيها والسيطرة عليها . وإن الإيمان بالله إيماناً صادقاً ، واتباع منهجه الذي شرعه لنا في القرآن ، وبيّنه لنا النبي الهادي - صلى الله عليه وسلم - خليق أن يخرس فينا عزيمة قوية ، وإرادة قتيّة تمكّناننا من التحكم في انفعالاتنا والسيطرة عليها .

إن المؤمن صادق الإيمان لا يخاف إلا الله تعالى وحده ، فلا يجزع من الموت أو الفقر ، ولا يرهّب الناس ، ولا يجهل ولا يظلم ، وإن أصابه خير لا يفخر ولا يمتنع وإن أصابه شر لا يقنط ولا ييأس ، لأنه يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن القلم قد جفّ بما هو كائن ، فكلُّ ميسرٍ لما خلق له .

٣- وصف الشيطان

وُصف الشيطانُ بطريق المبالغة بخمسة أوصاف ، وقد سبق الحديث عن هذه الأوصاف مفرقةً في مبحث صيغ المبالغة بينما هنا أودُّ أن أجمع شتات هذه الأوصاف ؛ لأنها تشكل منظومةً كاملة ، وتصورًا تامًّا لأبرز الصفات التي اتسم بها ، والتي لا رجعةَ له فيها لأنه منطبعٌ ” بها ، فلا يُغزُّ به إنسان ، ولا يطمع في هدايته أحد (١) هذه الأوصاف هي :

١- من صيغة " فعَّال " وصف " واحد " هو : { الخَنَّاس } (٢) .

ورد في القرآن مرة واحدة في قوله تعالى :

﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ (٣) .

٢- من صيغة " فعيل " وصفان هما :

عصيًا : ورد وصفًا للشيطان مرة واحدة في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ (٤) .

(١) فقد روي أن موسى - عليه السلام - لقيه إبليس فقال له : يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالته ، وكلمك تكليمًا ، وأنا خلقٌ من خلق الله أنذيت وأريد أن أتوب فاشفع لي إلى ربي أن يتوب علي . فقال موسى : نعم . فلما صعد موسى الجبل ، وكلم ربه - عز وجل - وأراد النزول قال له ربه : إذ الأمانة . فقال موسى : يارب عبدك إبليس يريد أن تتوب عليه . فأوحى الله إلى موسى : " يا موسى قد قضيت حاجتك مُره أن يسجد لقبر آدم حتى يتاب عليه " فلقى موسى إبليس فقال له : قد قضيت حاجتك أمرت أن تسجد لقبر آدم حتى يتاب عليك ، فغضب واستكبر وقال له : لم أسجد له حيا أسجد له ميتًا ؟ ! انظر تبليس إبليس - ابن الجوزي / ٣٠ .

(٢) { الخنوس : الانتقباض والاستخفاء .. وفي الحديث : " الشيطان يوسوس إلى العبد ، فإذا ذكر الله خنس " أي انقبض منه وتأخر .. قال الفراء في قوله تعالى : " من شر الوسواس الخناس " قال : إبليس يوسوس في صدور الناس ، فإذا ذكر الله خنس ، قيل إن له رأسًا كراس الحية : يختم على القلب ، فإذا ذكر الله العبد تنحى وخنس فإذا ترك ذكر الله رجع إلى القلب يوسوس نعوذ بالله منه { اللسان مادة (خ . ن . س) .

(٣) الناس / ٤

(٤) مريم / ٤٤

، مرید (١) : ورد بهذا اللفظ مرة واحدة في قوله تعالى :

﴿ وَيَتَّبِعْ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ (٢) .

وورد بلفظ " مریدًا " مرة واحدة في قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴾ (٣) .

٣- من صيغة " فعول " وصفان هما :

خذولاً (٤) :

ورد مرة واحدة في القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ (٥) .

، الغرور (٦) :

ورد في القرآن الكريم ثلاث مرات هي :

(١) { المارد : العاتى .. وتأويل المُرود أن يبلغ الغاية التي تخرج من جملة ما عليه ذلك الصنف .. وقال ابن الأعرابي : المرّد : التناول بالكبر والمعاصي .. والمرید : من شياطين الإنس والجن . وقد تمرّد علينا أي عتا . ومرد على الشر وتمرّد ، أي عتا وطغى . والمرید : الخبيث المتمرد الشرير وشيطان مارد ومرید واحد . قال ابن سيده : والمرید يكون من الجن والإنس وجميع الحيوان ، وقد استعمل ذلك في الموات فقالوا : تمرّد هذا البئق أي جاوز حدّ مثله ، وجمع المارد مرّدة { اللسان مادة (م . ر . د) .

(٢) الحج / ٣

(٣) النساء / ١١٧

(٤) { الخازل : ضد الناصر . خذله وخذل عنه يخذله خذلاً وخذلانا : ترك نصرته وعونه . والتخذيل : حمل الرجل على خذلان صاحبه ، وتثييطه عن نصرته { اللسان مادة (خ . ذ . ل) .

(٥) الفرقان / ٢٩

(٦) { الغرور : الشيطان يغرّ الناس بالوعد الكاذب ، والتمنية . وقال الأصمعي الغرور الذي يغرّك . والغرور بالضم : الأباطيل { اللسان مادة (غ . ر . ر) . وقال أبو السعود : الغرور : الشيطان المبالغ في الغرور . انظر أبا السعود ٧٧/ ٧

قوله تعالى :

﴿ فَلَا تَغْرَنَكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرَنَكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ (١) .

، ﴿ فَلَا تَغْرَنَكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرَنَكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ (٢) .

، ﴿ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَكَمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ (٣) .

وخلصة تلك الصفات { الخناس - عصياً - مرید - خذولاً -
الغرور } أنه :

أولاً : مُبالغ في التَّخْفِي والتَّسْتُر .

ثانياً : مُبالغ في العَصِيان والتَّأْبِي .

ثالثاً : مُبالغ في التَّمْرُد والعَتْو .

رابعاً : مُبالغ في الخَذْلان والتَّوْلِي عن النُّصْرَة .

خامساً : مُبالغ في الغُرور والتَّمْنِي الكاذب .

أولاً : المبالغة في التَّخْفِي والتَّسْتُر .

فهو لا ينتهي أبداً عن تلبسه بالتَّسْتُر والتَّخْفِي سواء بالمفارقة عند الذكر أو عن طريق المعاودة بعد ذلك ، فهو لا يقوى على المواجهة ، وليس مأذوناً له فيها ، بل هو يوحى بالفكرة والخطرة والنزعة والوسوسة ، ويكتفي بهذا وهو لا يطمح في أكثر من ذلك ، بيد أنه يبالغ في الاستخفاء حتى لا تكاد تشعر به ، وكان الوسوسة من محض نفسك ومن كدك وصنعك وهو منه براء بعد أن تتحى تحية الحية ، وخنس خنوس الكلب وإنما الأمر مرده بعد ذلك إليك ، فإن شئت استجبت لوسوسته واندرجت تحت لوائه وفي قبضته وإن شئت استعصمت فنجوت .

(١) لقمان / ٢٢

(٢) فاطر / ٥

(٣) الحديد / ١٤

ثانياً : المبالغة في العصيان والتأبّي .

فهو منطبع على العصيان ، يُكثر من مخالفة أمر مولاه — عز وجل — فلا ينفك عن المخالفة والتأبّي والرفض ، وقد بالغ في ذلك أيما مبالغة ، وهذا كله ليس في نفسه فقط ؛ بل في مبالغته في إكساب العبد هذا العصيان ، والوقوف ضده في كل سبيل للخير ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١) .

{ إن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهّم بالخير ، أو يدخل فيه ، فهو يشتدّ عليه حينئذٍ ليقطعه عنه ، وفي الصحيح عن النبي — صلى الله عليه وسلم — " إن شيطاناً تقلّت عليّ البارحة ، فأراد أن يقطع عليّ صلاتي " (٢) وكلما كان الفعل للعبد وأحب إلى الله تعالى كان اعتراض الشيطان له أكثر وفي مسند الإمام أحمد من حديث سيرة بن أبي الفاكه أنه سمع النبي — صلى الله عليه وسلم — يقول : " إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرافه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك ، فعصاه فأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتذر أرضك وسماعك ؟ وإنما مثل المهاجر كالفارس في الطول ، فعصاه وهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد — وهو جهاد النفس والمال — فقال : تقاتل فتقتل ، فتتكح المرأة ويقسم المال ؟ قال : فعصاه فجاهد " (٣) فالشيطان بالرصد للإنسان على طريق كل خير { (٤) .

ثالثاً : المبالغة في التمردّ والعتو .

فالشيطان ماردٌ " ، قد تطاول بالكبر والمعاصي ، فهو متمردٌ شريّر عاتٍ ، وهو مريد بمعنى أنه بلغ الغاية في العتو والفجور

(١) الاعراف / ١٦

(٢) حديث صحيح — أخرجه البخاري وأحمد ومسلم وغيرهم .

(٣) حديث صحيح — أخرجه النسائي وأحمد وابن حبان وغيرهم

(٤) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان — ابن قيم الجوزية — دار الحديث القاهرة ط الأولى

١٩٩١م / ١٠٣

لخروجه عن طاعة ربه حتى أمر الناس بعبادة غير الله (١) وأصل مادة (م . ر . د) للملامسة والتجرد ، ومنه " صرّح مُمرّد " النمل ٤٤ (٢) وكأنه قد تجرّد وتمرّن حتى بلغ النهاية في ممارسة أساليب الشيطنة والإغواء .

فمنذ أن هبط آدم عليه السلام إلى الأرض احتدم الصراع الخالد بين أبناء آدم عليه الصلاة والسلام وإيليس عليه اللعنة . وقد صورّ القرآن الكريم بعض أساليبه وتحركه المستميت في الإغواء كما قال عز وجل :

﴿لَأَقَعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٣) يعني على طريق الإسلام ، ولأرصدنهم ولأصدنهم (ثم لأتينهم من بين أيديهم) يعني من أمر الآخرة حتى أجعلهم في الشك (ومن خلفهم) لأزيننّ لهم الدنيا حتى يطمئنوا إليها ، ويركنوا لها (وعن أيانهم) يعني آتيهم من جهة الدين والطاعة (وعن شمائلهم) يعني من جهة المعاصي " ولا تجد أكثرهم شاكرين " يعني على النعماء (٤) .

رابعاً : المبالغة في الخذلان والتولي عن النصرة .

فهو كثير الخذلان لمن اتبعه ، إذ يبلغ الغاية في التخلي عن الأتباع وترك المعاونة والنصرة لهم وقت الحاجة وساعة الطلب ، فهو يعدهم ويمنيهم ويزين لهم حتى ينخدع الخادعون بوسوسته ويستجيبيوا له حتى يوردهم المهلك وقد تركهم بلا نصير ، وفي قصة راهب

(١) انظر الصاوي على الجلالين ١ / ٢١٤

(٢) انظر روح المعاني ٥ / ١٤٩

(٣) السياق كله أيتا الأعراف / ١٦ ، ١٧

(٤) انظر إغاثة اللهفان / ٤

بني إسرائيل خير دليل على ذلك (١) ولا شك أن قمة ما يرجوه الشيطان أن يرى الإنسان مخذولاً مخزياً ساعتها يشعر بالفوز والغلبة ، وأنه أدى وظيفته على خير وجه ، وأحسن موقع فليت الإنسان يتعظ ويتدبر .

خامساً : المبالغة في الغرور والتمني الكاذب .

فالشيطان يعثرُ النَّاسَ بالوَعْدِ الكاذبِ والتمنية الزائفة من مالٍ وجاهٍ ، وشهوةٍ بخبثٍ وخفيةٍ وتمويه حتى ينطلي على كثيرٍ من المغرورين ، فتراهم يستجيبون لتزيينه ، لأنه يباليغ في الغرور مبالغة عظيمة ، فيحملهم حملاً على المعاصي ويُنسيهم التوبة والمغفرة أو يعمل على إرجائهما ؛ بل إن من معاني الغرور أن يُطمع العاصين في المغفرة وهم يلبسون المعصية لا ينفكون عنها .

ومن هنا جاءت الآيات القرآنية لتبين غروره في ثلاثة مواضع (٢) وجاءت سياقات قرآنية أخرى تكشف لنا حقيقة ما يريده الشيطان من وراء غروره كما في قوله تعالى :

﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (٣) .

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوةَ والبغضاءَ في الخمرِ والميسرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَن الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ ﴾ (٤) .

(١) كان راهب في بني إسرائيل فأخذ الشيطان جارية فخنقها ، وألقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب ، فأتى بها الراهب فأبى أن يقبلها فمازالوا به حتى قبلها ، فكانت عنده فاتاه الشيطان ، فسؤل له إيقاع الفعل بها ، فأحبها ثم أتاه ، فقال له : الآن تفتضح بأتيك أهلها فاقتلها ! فإن أتوك فقل ماتت ، فقتلها ودفنها ، فأتى الشيطان أهلها فوسوس لهم وألقى في قلوبهم أنه أحبها ثم قتلها ، ودفنها ، فاتاه أهلها يسألونه عنها ، فقال : ماتت فأخذه فاتاه الشيطان . فقال : أنا الذي ضربتها وخنقنها ، وأنا الذي ألقى في قلوب أهلها ، وأنا الذي أوقعتك في هذا فأطعني تتج ، اسجد لي سجدتين ، فسجد له سجدتين ، فهو الذي قال عز وجل " كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء " منك إني أخاف الله رب العالمين " الحشر/ ١٦ انظر تليس إبليس / ٢٦

(٢) لقمان / ٣٣ ، فاطر / ٥ ، الحديد/ ١٤ انظر ص ٤٦٢ .

(٣) النساء / ٦٠

(٤) المائدة / ٩١

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (١).

وفي هذا بيان " شافٍ لكل إنسان حتى يأتي يوم القيامة ويقول ما حدثنا بعداوتة أحد " ؛ بل سيأتي السؤال من قِبَل الحق تعالى :

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (٢).

وحيلته في الإغواء والإغراء والغرور واحدة ، يمنح " الطعم " أولاً حتى إذا اطمأنَّ إليه المغرور انكشفت حقيقته ، وبأن قصده في الاستدراج والخدلان والخزي (٣) .

(١) فاطر / ٦

(٢) يس - / ٦٠

(٣) من هذه الصور الإغوائية ما حدَّث به سعيد بن سليمان عن المبارك بن فضالة عن الحسن قال : كانت شجرة تُعبد من دون الله فجاء إليها رجل " فقال لأقطع هذه الشجرة ، فجاء ليقطعها غضباً لله فلقية إبليس في صورة إنسان ، فقال : ما تريد ؟ قال أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تُعبد من دون الله . قال إذا أنت لم تعبدها فما يضرك من عبدها ؟ قال لأقطعنها . فقال له الشيطان هل لك فيما هو خير " لك ! لا تقطعها ولك ديناران كل يوم إذا أصبحت عند سادتك . قال فمن أين لي ذلك قال أنا لك ! فرجع فأصبح فوجد دينارين عند سادته ثم أصبح بعد ذلك فلم يجد شيئاً فقام غضباً ليقطعها فتمثل له الشيطان في صورته ، وقال ما تريد ؟ قال أريد قطع هذه الشجرة التي تُعبد من دون الله تعالى قال كذبت مالك إلى ذلك من سبيل فذهب ليقطعها فضرب به الأرض وخنقه حتى كاد يقتله قال أتدري من أنا . أنا الشيطان جئت أول مرة غضباً لله فلم يكن لي عليك سبيل فخذعك بالدينارين فتركتها فلما جئت غضباً للدينارين سلطت عليك . انظر تلبس إبليس / ٣٢

٤- وصف النار وأهلها

وصفت النار - بطريق المبالغة - بخمسة أوصاف . وقد سبق الحديث كذلك عن هذه الأوصاف مَفْرَقَةً ؛ 'كُلُّ' في صيغتها ، لكنها في مجموعها - هنا - تُشكِّل صورةً شَبه متكاملة عن النار وهولها المتزايد في صفاتٍ بعينها هي :

١- من صيغة " فعَّال " ثلاثة أوصاف هي :

١- غَسَّاق (١) : بلفظ " غَسَّاق "

ورد في القرآن الكريم مرةً واحدةً في قوله تعالى :

﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ ۖ وَغَسَّاقٌ ﴾ (٢) . وأخرى بلفظ " غَسَّاقًا " في قوله تعالى :

﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ (٣) .

٢- لوَّاحَةٌ (٤) :

ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم مرةً واحدةً في قوله تعالى :

﴿ لوَّاحَةٌ ۖ لِلْبَشَرِ ﴾ (٥) .

٣- نَزَّاعَةٌ (٦) :

ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم مرةً واحدةً في قوله تعالى :

﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَأُنْظَى * نَزَّاعَةٌ لِّلشَّوَى ﴾ (٧) .

(١) الغَسَّاق : ما يقنطر من جلود أهل النار انظر المفردات / ٦٠٦

(٢) ص / ٥٧

(٣) النبا / ٢٤ ، ٢٥

(٤) أي تحرق الجلد حتى تُسَوِّدَهُ انظر لسان العرب مادة (ل . و . ج) .

(٥) المدثر / ٢٩

(٦) الشوى : الأطراف أو جمع شواة وهي جلدة الرأس تنزعها نزعًا فتبتكها ثم تعاد مرة أخرى . انظر الكشاف / ٤ / ١٣٩

(٧) المعارج / ١٥ ، ١٦

٢- من صيغة " فعيل " وصف واحد : " حميم "

حيث ورد في القرآن الكريم بلفظ " حميم " سبع عشرة مرة (١)

وبلفظ " حميمًا " ورد ثلاث مرات

ولفظ " الحميم " له ثلاثة معانٍ :

الحميم : القريب .

، الحميم : الماء شديد الحرارة .

، الحميم : المطر الذي يأتي في الصيف حين تسخن الأرض (٢) .

وجاء في القرآن الكريم بالمعنيين الأولين فقط ، والمراد - هنا - في هذا المبحث المعنى الثاني إذ هو وصف " لشدة حرارة هذا الماء الذي بلغ من الغليان الدرجة التي يتجرجر في بطونهم وتنقطع به أمعائهم حتى قيل : " إذا دنا منهم { هذا الماء المستعر } شوى وجوههم ، وانمارت فروة رؤسهم فإذا شربوه قطع أمعائهم " (٣)

٣- من صيغة " فعلة " وصف " واحد " : " الحُطْمَة " (٤)

ورد هذا الوصف بهذا اللفظ في القرآن الكريم مرتين في قوله تعالى :

﴿ كَلَّا لَئِن لَّبَدْنَا فِي الحُطْمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحُطْمَةُ ﴾ (٥)

(١) انظر مبحث صيغ المبالغة

(٢) انظر لسان العرب مادة (ج . م . م) .

(٣) أبو السعود ٩٦/ ٨

(٤) لأنها تحطم ما تلتقى ، وقيل : الحُطْمَة باب من أبواب جهنم ، وكل ذلك من الحَطْم الذي هو الكسر والدق ، والحطمة من أبنية المبالغة وهو الذي يكثر منه الحَطْم ، ومنه سُميت النار الحُطْمَة ، لأنها تحطم كل شيء ، ومنه الحديث : رأيت جهنم يحطم بعضها بعضًا انظر لسان العرب مادة (ح . ط . م) .

(٥) الهمة / ٤ ، ٥

وخلصه تلك الأوصاف : { غساق - لواح - نزاعة - حميم -
الحطمة } أنها تحمل هذه المعاني :

أولاً : المبالغة فيما يخرج من جلود أهل النار من صديد .

ثانياً : المبالغة في حرق جلودهم حتى تسود أو المبالغة في ظهورها .

ثالثاً : المبالغة في نزع الأطراف وفروة الرأس .

رابعاً : المبالغة في شدة حرارة الماء .

خامساً : المبالغة في التحطيم والتكسير والتهشيم .

أولاً : المبالغة فيما يخرج من جلود أهل النار من صديد .

فأهل النار لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ، ولا يتجرعون إلا هذا
الحميم ومعه ذلك الغساق - سواء أكان معناه الصديد المُنْتِن الذي يسيل من
جروح أهل النار أم هو ما يسيل من دموعهم ، فقد اختلف المفسرون
واللغويون في تحديد مصدر السائل هل هو الجرح أم العين على
قولين ^(١) ، وقد قيل إن هذا السائل " غساق " يحرق ببرده كما يحرق
الحميم بحره ^(٢)

ولقد قيل عن نتن هذا الشراب أنه لو قطرت منه قطرة في المشرق لنتنت
أهل المغرب ، ولو قطرت منه قطرة في المغرب لنتنت أهل المشرق ^(٣)

فما أفظع هذا الشراب وأبلغ تأثيره ! ، فإن له تأثيرين ، كلاهما أوجع من
الآخر ، أولاهما : أنه حارٌ حارق ، وأخراهما : تحسُّه الأنف قد بولغ في نتته
إلى الدرجة التي قطرة " منه تُنتنُ مَشْرِقاً متباعداً عنها أو مغرباً !
فالإيلام متنوع ، وفضاعة الشراب متعددة ، إذا استساغ الإنسان

(١) انظر الكشاف ٣ / ٣٢٢ ، لسان العرب مادة (غ - س - ق) .

(٢) انظر الكشاف ٣ / ٣٢٢

(٣) نفسه ٣ / ٣٢٢

لونها فاجاه الآخرة ، فلا يستطيع ذواقًا ، لذا عبر القرآن الكريم عن هذا الوصف أوضح تعبير في قوله عز من قائل :

﴿ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمَنْ وَرَّاهُ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ (١)

ثانيًا : المبالغة في حرق جلودهم حتى تسود أو المبالغة في ظهورها .

الجمهور على أن معنى "لواحة" : "مغيّرة" للبشرة ، "محرقة" للجلود ، "مسودة" لها { تقول العرب : لاحت النار الشيء إذا أحرقته وسودته } (٢) ، وثم معنى آخر للواحة { قال الحسن وابن كيسان "لواحة" بناء مبالغة من لاح إذا ظهر ، والمعنى : أنها تظهر للناس وهم البشر من مسيرة خمسمائة عام ، وذلك لعظمتها وهولها وزجرها } (٣) .

ومن هنا يكون توجيه المبالغة ووفقًا للمعنى ، على رأي الجمهور أنها "تلفح الجلد لفحة فتدعه أشد سوادًا من الليل" (٤) وعلى الرأي الآخر أنها مبالغة من الظهور فهي تبدو من بعيد لا تخفى على أحد ، ولهذا نجد سياقًا قرآنيًا آخر يُضفي بعدًا مُتممًا لهذا الظهور ، يملأ الفزع في قلوب الكافرين فهي - مع كونها بادية - لا ينحجب عنها أحد " من الملحدين - تراهم وتعرفهم ! فتلتقطهم كما يلتقط الحب كما قال عز من قائل : ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظًا وزفيرًا ﴾ (٥)

ولم يرجح "ابن جزي" في "التسهيل" بين المعنيين - كعادته - وإنما الذي رجح بينهما "الصاوي" (٦) فاختر الأول { رأي الجمهور } على أنه الأقرب ، والذي أراه ترك الترجيح لاحتمال المعنيين ووفقًا للسياق القرآني ، لأن المقام مقام تخويف ، ورؤية النار من بُعد بما تحمله من

(١) إبراهيم / ١٦ ، ١٧

(٢) البحر المحيط ٨ / ٣٦٧

(٣) نفسه ٨ / ٣٦٧

(٤) أبو السعود ٩ / ٥٨

(٥) الفرقان / ١٢

(٦) انظر الصاوي على الجلالين ٤ / ٢٢٥

دلالات الفظاعة والهول و"ارد" مقصود لإرعاب المشركين والله أعلم .

ثالثًا : المبالغة في نزع الأطراف وفروة الرأس .

قال عز من قائل : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَأُنْظَى * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى ﴾ (١) و "نزاعة" بناء للمبالغة من النزع وهو الاقتلاع ، والجذب بشدة (٢) حتى إنها لتنزع لشدة حرها الأطراف ، أو تنزع فروة الرأس انتزاعًا ، فتبتكها ثم تعاد مرة أخرى قال الضحاك : تفري اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك منه شيئًا (٣)

إن هذه الصورة مكملة لسابقتها فهي - بعد أن كانت لوأحة أي بادية أو محرقة - هنا هي نزاعة ، تقنع من الإنسان أطرافه ومفاصله وجلده رأسه ، وهنا يبدو المشهد أشد صعوبةً وفنكًا على الكافرين ، كما أنه يُعطي دلالة قاطعة على فداحة العُرم ، وسوء المنقلب بما لا يدع مجالاً للشك أن الكافرين قد دخلوا معترك الإيلام ، وانخرطوا في سلك العذاب المهين .

وهنا .. خلال تلك المشاهد المتلاحقة .. المؤثرة .. قد تتراءى للكافر فكرة الهروب أو الاختفاء والانزواء في مكان مُستتر بعيدٍ عن رصد النار له .. وهنا يأتي السياق القرآني معلنًا معرفتها التامة بالكافرين وسمتهم ، والمشركين وهيئاتهم ، والملحدين وتحركاتهم ﴿ تدعو من أدبر وتولى * وجمع فأوعى ﴾ (٤)

تدعوهم وتملاً أذانهم بلسان فصيح : إليّ يا كافر .. إليّ يا منافق .. إليّ يا فاسق .. عندئذٍ ، عندما يسقط في أيديهم ﴿ يودُّ المجرمُ لو يفتدى من عذابِ يومئذٍ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصيلته التي تؤيه * ومن في الأرض جميعًا ثم يُنجيه ﴾ (٥)

(١) المعارج / ١٥ ، ١٦

(٢) انظر المفردات / ٧٩٨

(٣) انظر القرطبي ١٠ / ٧٠١٤

(٤) المعارج / ١٧ ، ١٨

(٥) المعارج / ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤

رابعاً : المبالغة في شدة حرارة الماء .

قال تعالى : ﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ (١) ، ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ (٢) حيث يُسقى الكافرون ماءً حاراً شديداً الغليان ، فَقَطَّعَ أحشاءهم من فرط حرارته حتى قيل من المبالغة في الغليان : إذا دنا منهم { هذا الماء المستعر } شوى وجوههم ، وانمارت فروة رءوسهم ، فإذا شربوه قطع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم (٣) .

خامساً : المبالغة في التَحطيم والكسير والت هشيم .

إنها " الحَطْمَة " ، التي تحطم كل شيء تلقاه أمامها ، وبإمكانها تهشيم أضخم شيء وأعظمه ، فلا يقوم لها شيء ، إذ من خصائصها تفتيت أي صلب قال ابن منظور : { الحطمة : من أبنية المبالغة ، وهو الذي يكثر منه الحَطْمُ ومنه سُمِّيَت النار الحَطْمَة ، لأنها تحطم كلَّ شيء ، ومنه الحديث : رأيت جهنم يحطمُ بَعْضُهَا بَعْضًا } (٤) .

إنها الحطمة التي تحطم العظام ، وتآكل اللحوم حتى تهجم على القلوب . إنها — كما هو ظاهر — نارٌ " مُحَطَّمَة كل ما تلقاه من شدة البطش ، والغیظ والحقن أضف إلى ذلك — عند تتابع السياق القرآني — أنها بعد التَحطيم ، والكسير تتطرق إلى الأفتدة ﴿ التي تَطَّلَعُ عَلَى الأفتدة ﴾ (٥) حيث { تدخل في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم ، وتطلع على أفئدتهم وهي أوساط القلوب ولا شيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد ، ولا أشد تألماً منه بأدنى أذى يمسُّه فكيف إذا اطلعت عليه نار جهنم واستولت عليه } (٦)

(١) الأنعام / ٧٠

(٢) محمد / ١٥

(٣) انظر القرطبي ٩ / ٦٢٨٨ ، ابا السعود ٨ / ٩٦

(٤) لسان العرب مادة (ح . ط . م) .

(٥) الهمزة / ٧

(٦) الكشاف / ٤ / ٢٣٣

وإحساء المبالغة في " الحطمة " يشي بالرعب منها ، واجتلاب ألوان الفزع والخوف من قرعها وتحطيمها - ولعلك هنا - تدرك الآن قدر الرهبة المطلوبة التي ينبغي أن تتوافر لدى المتلقي عند سماعه لقوله تعالى :

﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ (١)

﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ﴾ (٢)

بهذا النقل ، وتلك الأبعاد : نزاعة - لواحة - حطمة . . . ينبغي الحذر منها ويأتي في هذا الصدد قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ
وَالْحِجَارَةُ .. ﴾ (٣)

(١) الشعراء / ٩١

(٢) النازعات / ٧٩

(٣) التحريم / ٦

ثانياً : الإعجاز الفقهي

ثمة مسائل فقهية أدت من خلالها المبالغة بيانًا شافياً يؤيد " رأياً مقيلاً ، أو وجهاً مختاراً ، أو وجهةً مُتَّبَعَةً ، فهي تقوم دليلاً مُرَجَّحاً للآراء المختلفة حول المسألة الواحدة .

ولا ريب أن مثل هذه المسائل ليس بالكثير ، وإنما جاءت عَرَضًا ولِإِمَامًا لأن " المبالغة " في الأصل أداة بلاغية ، وطريقة بيانية ، والفقه أحكام مستنبطة من أدلتها التفصيلية ومن هنا قلما يلتقيان ؛ لأن الأحكام تعتمد - غالبًا - على الأسلوب الخبري التقريري المباشر ، فهما - إذن - خطان متوازنان وليسا متلاقين إلا نُزْرًا .

وهذه بعض المسائل جمعتها في هذا المبحث للمبالغة فيها تعلق بالأحكام وترجيحها :

المسألة الأولى :

هل يجب على المرأة أن تغتسل بعد انقطاع دم الحيض أم لا ؟

المبالغة عضدت أدلة وجوب الغسل وأن الواجب على المرأة أن تغتسل بعد انقطاع الدم ^(١) وهذا رأي الجمهور .

قال تعالى : ﴿ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي المَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾ ^(٢) .

(١) تَكْنَسَلُ بعض النساء عند انقطاع دم الحيض - إن أردن المجامعة - عن الغسل ؛ فيوطنن أزواجهن بدونه ، بحجة أنهن لا يردن أن يجمعن على أنفسهن غسلين في أن واحد . 'غسل' قبل الوطء ، وغسل بعده للتطهر من الجنابة ، ويتكفن في ذلك على ما ورد عن أبي حنيفة في حل الوطء عند انقطاع الدم بلا غسل وذلك لأكثر الحيض . انظر المغني لابن قدامة .. دار الغد العربي ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م ٣٧٠/١ ، الكشاف ١/١٣٤ ، التسهيل ١/٨٠ والظاهر أن رأي أبي حنيفة لا دليل له ، وأن الحجة مع الجمهور لظاهر قوله تعالى " ولا تقربوهن حتى يَطْهُرْنَ " ولقوله - صلى الله عليه وسلم - دعي الصلاة قدر الأيام التي كنت تحيضين فيها ثم اغتسلي وصلي " متفق عليه .

قال ابن قدامة : { فأما الوطء قبل الغسل فهو حرام في قول أكثر أهل العلم قال ابن المنذر هذا كالإجماع } انظر المغني ١/٣٧٠

وقال الشافعي في الأم : { قال الله تبارك وتعالى " ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض " .. أبان عز وجل أنها حائض غير طاهر ، وأمر أن لا تقرب حائض حتى تطهر ، ولا إذا طهرت حتى تتطهر بالماء وتكون ممن حل لها الصلاة ولا يحل لامرئٍ وكانت امرأته حائضاً أن يجامعها حتى تطهر } الأم - للإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي - دار الغد العربي - ط الأولى ١٩٨٩م - ١٤٠٩هـ ١/١١٠

(٢) تمام الآية : " ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يَطْهُرْنَ فإذا تَطْهُرْنَ فاتوهن من حيث أمركم الله إن الله يُحب التوابين ويُحب المتطهرين " ==

قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر والمفضل عنه (يَطْهَرْنَ) بتشديد الطاء والهاء والفتح (١) وأصله يتطهرن ، وكذا هي في مصحف أبي وعبد الله ، وقرأ الباقر من السبعة (يَطْهَرْنَ) مضارع طهر ، في مصحف " أنس " { ولا تقربوا النساء في محيضهن واعتزلوهن حتى يتطهرن } (٢) .

ومن هنا اكتسبت الصيغة "يَطْهَرْنَ" المبالغة بالتشديد ، وهذه المبالغة التي تمثلت في التشديد (٣) رجّحت رأي الجمهور في أن المقصود من الطهر في الآية : انقطاع الدم والغسل معاً ورجح الطبري قراءة التشديد ، وقال : هي بمعنى يغتسلن لإجماع الجميع على أنه حرام على الرجل أن يقرب امرأته بعد انقطاع الدم حتى تطهر (٤) .

قال ابن منظور : { الطهر : نقيض الحيض .. وَطَهَّرَتِ الْمَرْأَةُ ، وَهِيَ طَاهِرٌ : انقطع عنها الدّم ، ورأت الطهر ، فإذا اغتسلت قيل : تطهّرت واطهّرت .. وروى الأزهرى عن أبي العباس أنه قال في قوله عز وجل : ﴿ ولا تقربوهن حتى يطهّرن فإذا تطهّرن فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾ ؛ وقرئ : ﴿ حتى يطهّرن ﴾ ، وقال أبو العباس : والقراءة يطهّرن ، لأن من قرأ يطهّرن أراد انقطاع الدم ، فإذا تطهّرن اغتسلن ، فصير معناهما مختلفاً } (٥) .

• البقرة / ٢٢٢ ، والمقصود اجتناب معاشرّة النساء في حالة الحيض حتى ينقطع عنهن دم الحيض ويغتسلن وفقاً لرأي الجمهور ، كما ينبغي الالتفات إلى أن الغرض عدم المعاشرّة لا عدم القرب منهن وعدم مؤاكلتهن ومجالستهن كما كان يفعل اليهود . انظر البحر المحيط ١٧٦ / ٢

(١) انظر كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد - تحقيق د . شوقي ضيف / ١٨٢ ، البحر المحيط ٢ / ١٧٨

(٢) انظر البحر المحيط ٢ / ١٧٨

(٣) التشديد كما مرّ في الفصل الأول أداة من أدوات المبالغة .

(٤) انظر البحر المحيط ٢ / ١٧٨

(٥) لسان العرب مادة (ط . ه . ر) .

ولا ريب أن المبالغة بالمعنى الذي سار عليه البحث وهو الوصول بالمعنى إلى أقصى معانيه قد أصاب الغاية في الحُسْن في هذا الموضوع ، إذ إن المرأة إذا انقطع عنها الدَّمُ طَهَّرَتْ - ما في ذلك شك - بَيِّدَ أنها إذا أرادت المبالغة والتقصِّي في الطُّهْرِ تطَهَّرَتْ بالماء ، وهذا هو المنشود من الحكم الفقهي لتلك الآية المحكمة . والله أعلم .

المسألة الثانية :

ما دلالة وصف الماء بالطَّهْر بصيغة المبالغة في القرآن الكريم ؟

قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ (١) .

فالماء عند أهل العلم ينقسم قسمين من حيث كونه طاهراً :

الأول : طاهر " مُطَهَّرٌ " لغيره وهو " الطَّهْر " وهذا يمثل الأعلى درجة من حيث الطهارة وبه يصح الوضوء ، كماء البحر والنهر والسماء والعين .

الآخر : طاهر غير مُطَهَّرٌ لغيره : كماء الورد والعطور والمسك والماء المختلط بالصابون وهذا على الرغم أنه طاهر إلا أنه غير مُطَهَّرٌ لغيره (٢) .

قال ابن جزى في شرحه للآية السابقة : { " ماء طهوراً " : مبالغة في طاهر وقيل معناه : مُطَهَّرٌ ، وكلُّ مُطَهَّرٍ طاهر ، وليس كل طاهر مُطَهَّرٌ } (٣) .

(١) الفرقان / ٤٨ ، قال ابن منظور { كل طهور طاهر ، وليس كل طاهر طهوراً . قال الأزهري : وكل ما قيل في قوله عز وجل : " وأنزلنا من السماء ماء طهوراً " فإن الطهور في اللغة هو الطاهر المطهَّر ، لأنه لا يكون طهوراً إلا وهو يتطهر به ، كالوضوء هو الماء الذي يتوضأ به ... وسئل رسوله الله - صلى الله عليه وسلم - عن ماء البحر ، فقال : هو الطَّهْر ماؤه ، الحلُّ مَبْتَنُه ، أي المُطَهَّر ، أراد أنه طاهر " يُطَهَّرُ " . وقال الشافعي - رضي الله عنه - كل ماء خلقه الله نازلاً من السماء ، أو نابعاً من عين في الأرض أو بحر ، لا صنعة فيه لأدمي ، ولم يتغير طعمه منه ، فهو طهور كما قال الله عز وجل وما عدا ذلك من ماء وريد ، أو ورق شجر ، أو ماء يسيل من كرم فإنه - وإن كان طاهراً - فليس بطهور { لسان العرب مادة { ط . ه . ر } .

(٢) انظر الأم للشافعي ١ / ٣٦

(٣) التسهيل ٣ / ٧٩ ، ٨٠ ، وانظر البيضاوي ٢ / ١١٣ ، أبا السعود ٦ / ٢٢٤ ، الكشاف ٣ / ١٠٠ ، روح المعاني ١٩ / ٣٠

وقال القرطبي : { إن الماء المنزل من السماء طاهر في نفسه ، مُطَهَّرٌ لغيره فإن الطهور بناء مبالغة في طاهر ، وهذه المبالغة اقتضت أن يكون طاهرًا مُطَهَّرًا وإلى هذا ذهب الجمهور } (١) .

وأكد ابن عاشور هذا المعنى وبَيَّنَه بقوله : { الطهور بفتح الطاء من أمثلة المبالغة في الوصف بالمصدر كما يقال : رجل صبور . وماء المطر بالغ منتهى الطهارة إذ لم يختلط به شيء يُكثِّره أو يُقَدِّره وهو في علم الكيمياء أنقى المياه لخلوه من جميع الجراثيم فهو الصافي حقًا ، والمعنى : أن الماء النازل من السماء هو بالغ الطهارة في جنسه من المياه ، ووصف الماء بالطهور يقتضي أنه مُطَهَّرٌ لغيره ، إذ العدول عن صيغة فاعل إلى صيغة فعول لزيادة معنى في الوصف } (٢) .

وبَيَّنَّ " أن دور المبالغة في اللفظة " طهور " أبرز جانب تَقْصِي الطهر فيه ، وبلوغه المُنتهى كما أشار ابن عاشور ، فصَحَّ فيه أنه طاهر " في نفسه ، مُطَهَّرٌ " لغيره ، بينما اقتصر الماء الطاهر على كونه طاهرًا في نفسه فقط ، وليس مُطَهَّرٌ لغيره . مما أسهم بدوره في الفقه في تحديد نوع الماء المنوط به التطهر استعدادًا للصلاة وللعبادة .

المسألة الثالثة :

حتى متى ينتهي إفطار الصائم ليبدأ صيام يومٍ جديدٍ ؟

قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ (٣) .

ويبدو أننا في مصر مازلنا حتى الآن نأخذ بالأحوط ، فيتوقف الناس تمامًا عن الأكل والشراب بمجرد سماع أذان الفجر .. هذا إن كان على سبيل الضبط والاحتراز فلا حرج ! أما على سبيل التحقيق فما زال بعد الفجر فيه مُتَّسَعٌ حتى يُسفر النهار جِدًّا بدلالة قوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ ﴾ .

(١) القرطبي ٧ / ٤٩١٦

(٢) التحرير والتنوير مجلد ٩ ٤٧ / ١٩

(٣) البقرة / ١٨٧

قال ابن قدامة في المغني : { والصوم المشروع هو الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس وروي معنى ذلك عن عمر وابن عباس وبه قال عطاء وعوام أهل العلم وروي عن علي رضي الله عنه أنه لما صلى الفجر قال الآن حين تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود . وعن ابن مسعود نحوه وقال مسروق لم يكونوا يعدُّون الفجر فجركم إنما كانوا يعدون الفجر الذي يملأ البيوت والطرق وهذا قول الأعمش . ولنا قول الله تعالى : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ . يعني بياض النهار من سواد الليل وهذا يحصل بطلوع الفجر قال ابن عبد البر في قول النبي - صلى الله عليه وسلم - { إن بلالاً يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم } دليل على أن الخيط الأبيض هو الصَّبَّاح { (١) .

وعن سُمرَةَ عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : { لا يغرَنكم في سحوركم أذان بلال ، ولا بياض الأفق المستطيل حتى يستطير } { (٢) .

ومن هنا فالفجر فجران : كاذب : وهو المستطيل المستدقُّ الذي يُشَبَّه بِذَنبِ السَّرْحَانِ . (٣) .

وصادق : وهو المستطير المنتشر ضوؤه في الأفق ، المتجلِّي بوضوح للناس ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ﴾ أي يبدو جلياً لكم ، تبدو آثاره في الوهادت والنجدات ، وليس مقصوراً فقط على علماء الفلك الذي يرصدونه بآلاتهم وحساباتهم .

(١) المغني ٣ / ٢٨٥ ، ٢٨٦

(٢) رواه مسلم .

(٣) انظر لسان العرب مادة (ط . ي . ر) .

قال سيد قطب في شرحه للآية - كما أشرتُ من قبل في أكثر من موضع - { حتى ينتشر النورُ في الأفق وعلى قمم الجبال ، وليس ظهور الخيط الأبيض في السماء وهو ما يُسمَّى بالفجر الكاذب . وحسب الروايات التي وردت في تحديد وقت الإمساك نستطيع أن نقول : أنه قبل طلوع الشمس بقليل . وإنما نمسك الآن وفق المواعيد المعروفة في قطرنا هذا قبل أو ان الإمساك الشرعي ببعض الوقت ربما زيادة في الاحتياط } (١) .

وأكد هذا الرأي ما كتبه الألباني في تمام المنة تعليقا على ما سطره سيد سابق في فقه السنّة حيث قال : { قوله تحت هذا العنوان : " فإذا طلع الفجر وفي فمه طعام وجب عليه أن يلفظه . قلت : هذا تقليد لبعض الكتب الفقهية ، وهو مما لا دليل عليه في السنّة المحمدية ، بل هو مخالف لقوله - صلى الله عليه وسلم - : { إذا سمع أحدكم النداء والإناء على يده فلا يضعه حتى يقضي حاجته منه } أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم وصححه هو والذهبي وأخرجه ابن حزم .. وفيه دليل على أن من طلع عليه الفجر وإناء الطعام أو الشراب على يده ، أنه يجوز له أن لا يضعه حتى يأخذ حاجته منه ، فهذه الصورة مستثناة من الآية ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين

لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ﴾ فلا تعارض بينها وما في معناها من الأحاديث ، ولا إجماع يعارضه بل ذهب جماعة من الصحابة وغيرهم إلى أكثر مما أفاده الحديث وهو جواز السحور إلى أن يتضح الفجر ، وينتشر البياض في الطرق .. وإن من فوائد هذا الحديث إبطال

(١) الظلال ١ / ١٧٥

بدعة الإمساك قبل الفجر بنحو ربع ساعة لأنهم إنما يفعلون ذلك خشية أن يدركهم أذان الفجر وهم يتسحرون ولو علموا هذه الرخصة لما وقعوا في تلك البدعة فتأمل { (١) .

ونقل السيد أحمد صقر في تحقيقه لكتاب تأويل مُشكِل القرآن عن الطحاوي في (شرح معاني الآثار) الآتي : { عن زر بن حبیش قال : " تسحرتُ ثم انطلقتُ إلى المسجد ، فمررتُ بمنزل حذيفة فدخلتُ عليه فأمر بلقحةٍ (ناقة حديثة العهد بالولادة) فحلبتُ ، وبقدّر فسُحّنتُ ، ثم قال : كُل . فقلتُ : إني أُريد الصوم . قال : وأنا أُريد الصوم . قال : فأكلنا ثم شربنا ، ثم أتينا المسجد ، فأقيمتُ الصلاة . قال : هكذا فعل بي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو صنعتُ مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قلتُ : بعد الصبح؟! قال : بعد الصبح ، غير أن الشمس لم تطلع { (٢) .

وإذا ضمنا ما قاله ابن قدامة ، وسيد قطب ، والألباني ، وما نقله السيد أحمد صقر اتضح لنا الآتي :

أولاً : لا يجوز الإمساك قبل الفجر بنحو ربع ساعة ، أو أزيد خشية إدراك الناس أذان الفجر وهم يتسحرون ، لأن ذلك بدعة .

ثانياً : مراعاة تطبيق حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - " إذا سمع أحدكم النداء والإناء على يده فلا يضعه حتى يقضي حاجته منه " بالغاً ما بلغ فإن هذا هو السُّنة .

ثالثاً : وهو المقصود من هذه المسألة أنه يجوز للصائم الطعام والشراب حتى ينتشر البياض في الطرق ويملاً البيوت وهذا القول من الفقهاء يتوازى مع مفهوم المبالغة في السياق ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُم ﴾ . أي يتضح لكم بما لا يدع مجالاً للشك أن النهار قد بان وانتشر أما إمساك الناس قولاً واحداً عند الفجر فهذا - في رأيي - أضبط للمسألة ولكنه ليس الأفقه .

(١) تمام المنة في التعليق على فقه السنة تأليف محمد ناصر الدين الألباني - دار الراجية - ط الخامسة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م / ٤١٧ ، ٤١٨ .

(٢) انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة تحقيق السيد أحمد صقر هامش / ٤٦ .

هل هناك حدٌ أعلى للصدّاق ؟

قال تعالى : ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا ﴾ (١) .

قال ابنُ جُزي : { " قنطارًا " مثال على جهة المبالغة في الكثرة ، وقد استدلت به المرأة على جواز المغالاة في المهور حين نهى عمر بن الخطاب عن ذلك فقال عمر رضي الله عنه امرأة أصابت ، ورجل أخطأ ، كل الناس أفقه منك يا عمر } (٢) .

وقد دلّت المبالغة في السياق " قنطارًا " — بما لا يدع مجالاً للشك — على أنه لا حدٌّ لنهاية الصداق ، وأن الأمر مفتوح حسب سعة الرجل وقدرته ، ولا يجوز لوليٍّ أو عالمٍ أن يُحدّد ما جعله الله مطلقاً ولا أن يخصص ما جعله الله عامّاً قال ابن عاشور : { القنطار هنا مبالغة في مقدار المال المُعطى صداقاً أي مالا كثيراً ، كثرةٌ غير متعارفه . وهذه المبالغة تدل على أن إيتاء القنطار مباح شرعاً ، لأن الله لا يمثل بما لا يرضى شرعه مثل الحرام } (٣) .

فجاءت المبالغة لتبين لنا هذا الأمر إلى الدرجة التي يُعلنها عمر بن الخطاب — صراحةً — أنه قد أخطأ وأصابت امرأة ، بل يذكر بلا مواربة : كل الناس أفقه منك يا عمر — هكذا شهد عمر للمرأة بالفقه لأنها استنبطت الحكم من السياق في أن الأمر مُطلق ، فلا يصح تخصيصه ولا تحديده والله أعلم .

(١) تمام الآية : (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتهم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً تأخذونه بهتاً وإثمًا مبيناً) النساء / ٢٠

، قال ابن منظور : { القنطار : معيار ، قيل : وزن أربعين أوقية من ذهب ويقال : ألف ومائة دينار ، وقيل : سبعون ألف دينار ، وهو بلغة بَربر ألف متقال من ذهب أو فضة ، وقال ابن عباس : ثمانون ألف درهم ، وقيل هي 'جملة' كثيرةٌ مجهولة من المال ، وقال السُّدِّي : مائة رطل من ذهب أو فضة ، وهو بالسريانية ملءٌ مسكٌ ثورٌ ذهبياً أو فضةً ، ومنه قولهم قناطرٍ مقنطرة . وفي التنزيل العزيز " والقناطر المقنطرة " وروى أبو هريرة عن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : القنطار اثنا عشر ألف أوقية ، الأوقية خيرٌ مما بين السماء والأرض . وروى ابن عباس عن النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : من قرأ أربعمئة آية كتب له قنطار ، القنطار مائة متقال ، المتقال عشرون قيراطاً ، القيراط مثل أحد { لسان العرب مادة (ق . ن . ط . ر) } .

(٢) التسهيل ١ / ١٣٥ ، وانظر الكشاف ١ / ٢٥٨ ، البيضاوي ١ / ٢٠٧

(٣) التحرير والتنوير مجلد ٣ جزء ٤ / ٢٨٩

المسألة الخامسة :

القوامة - هل تتساوى المرأة مع الرجل ؟ !

قال تعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ (١) .

إيراد الجملة اسمية ، والخبر على صيغة المبالغة للإيدان بعراقتهم في الاتصاف بما أسند إليهم ، ورسوخهم فيه (٢) ، وعلل ذلك بأمرين وهبي وكسبي فقال تعالى : ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي بسبب تفضيله تعالى الرجال على النساء بكمال العقل وحسن التدبير ، ومزيد القوة في الأعمال والطاعات ، ولذلك خصوا بالنبوة والإمامة والولاية وإقامة الشعائر ، والشهادة في مجامع القضايا ، ووجوب الجهاد والجمعة والخطابة والرمي والاعتكاف ، والحملة والقسامة وانتساب الأولاد والوطء بملك اليمين والتعصيب وزيادة السهم في الميراث (٣) وهذا هو الشقّ الوهبي أما الكسبي ففي قوله تعالى : ﴿وبما أنفقوا من أموالهم﴾ أي في نكاحهن كالمهر والنفقة .

ومن هنا جاءت صيغة المبالغة " قوامون " لتعدل الميزان الذي قد شال فالنساء مهما تكاملن ، وتفاضلن ، لا يتساوين مع الرجال ، فإنهن يختلفن عنهن هيئة وخلقة وفطرة . وإن تعجب فاعجب لحال ما يدور الآن في عصرنا الحديث من صرخات مدوية تنادي بالتساوي التام بين الرجل والمرأة ، وللأسف وجدت هذه الصرخات بعض الأذان الصاغية التي تنادي بالعدل اللازب والمساواة الحتمية بين الجنسين .

(١) النساء / ٣٤

(٢) انظر أبا السعود ١٧٣ / ٢

(٣) انظر البحر المحيط ٢٤٩ / ٣ ، البيضاوي ٢٤٢ / ١

(٤) قال ابن عباس " قوامون " مسلطون على تأديب النساء في الحق . البحر المحيط ٢٤٩ / ٣ وقال ابن جزي : { قوام بناء مبالغة من القيام على الشيء والاستبداد بالنظر فيه ، قال ابن عباس : الرجال أمراء على النساء } التسهيل ١٤٠ / ١ .

فجاء هذا الأسلوب القرآني بما يحمّله من صيغ وأدوات بلاغية منها المبالغة لكي يضع الأمور في نصابها ، ويُعطي كل جنس ما أُهّل له فالمرأة وإن استغنت مالاً وجاهاً يُعدُّ من الظلم البين تحملها فوق ما تطيق من المسؤولية والقوامة وقيادة سفينة الأسرة في خضم الحياة وإنما هذا دور الرجل وطبيعته التي خلقه الله عليها من الجَلَد والصبر والتحمل وهي تختص بالإشفاق والحنو على أولادها ورعاية بيتها فهذا هو السبيل الأسمى لرسالتها وما كان بعدُّ فهو ثانوي هامشي .

ولا يصح – وهذا الهدي هدينا – أن نصغي إلى صيحات شرقية أو غربية وإنما نصغي لشرعنا الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه تنزيلٌ من حكيم حميد والله الهادي إلى سواء السبيل .

(٢) الخصائص العامة للمبالغة في القرآن الكريم

تميّزت المبالغة في القرآن الكريم ببعض السمات والخصائص العامة يمكن حصرها في النقاط الآتية :

١- المبالغة في القرآن بديعة مقبولة ، لا تحسُّ ساعة أن تسمعها بِنكارةٍ ، أو نفور ؛ بل تشعر بمدى تأثيرها كلما عاودت التلاوة والتدبر ، على عكس قول الشعراء ، فقد تجد له مبالغة في موطن لكنك قد تفقدها في حين آخر كما في قول الشاعر :

وَنُكْرِمُ جَارَنَا مَا دَامَ فِينَا وَنَتَّبِعُهُ الْكِرَامَةَ حَيْثُ مَا لَّا

فإن إكرام أي فرد - الآن - أضحى مُتَيَسِّرًا بفضل التقنيات الحديثة ، وآلات الاتصال المُعَدَّة في عصرنا الحديث .

٢- تعلقت المبالغة في بعض مواضعها في القرآن الكريم ببعض الأدوات اللغوية التي ضبطها اللغويون ، ووظفها البلاغيون ، فقد أسهمت بقدر بيّن في كشف بعض جماليات المبالغة مثل : بل - حتى - لو - مهما .

٣- ثمة طرائق أخرى عملت على إبراز المبالغة مثل الصفة المُشَبَّهة التي تضمنت معنى المبالغة ، والتعبير عن المستقبل بصيغة الماضي ، ووضع المصدر موضع الصفة ، وتغاير القراءات .

٤- وظفت في القرآن الكريم كثيرٌ من الأساليب الإنشائية مثل الاستفهام ، والأمر ، والنهي ، وكذا الخبرية مثل النفي والتوكيد لإظهار فنية المبالغة وبيان إعجازها .

٥- يتجلى إعجاز النظم الحكيم في دائرة الإيقاع في المواعمة الدقيقة بين جمال الشكل ، والمضمون ، فإذا أنعمت النظر في تناسب الفصول ، والمقاطع ، خلت أن الأسلوب القرآني يعمد إليه ويتوحّاه ، وإذا تأملت المعاني والأغراض وجدت أنه أحكم نسق الألفاظ وفقاً لثوابت المعاني وحركتها في الأذهان .

٦- أبرزت المبالغة في القرآن الكريم إعجاز وكمال بعض أسماء الله الحسنى سواء في صفات الجمال أو في صفات الجلال .

٧- حفلت مبالغات القرآن - في الصيغة - بتسجيل نوازغ النفس ، ورغائبها وما أُجبلت عليه ، حيث صورت المبالغة طبيعة النفس في جزعها ، وجهلها ، وظلمها ، وتعجلها ، وفخرها ، وكنودها ، وهلوعها إلخ .

٨- رصدت المبالغة في القرآن الكريم أبرز صفات الشيطان في التخفي والتسُّتر ، والعصيان والتأبِّي ، والتمرد والعتوّ ، والخذلان والتولي عن النصرة إلخ .

٩- أظهرت المبالغة في القرآن الكريم بعض صفات النار فهي لَوَّاحة ، نزاعة ، حُطمة ... إلخ .

١٠- من مبالغات القرآن المبتكرة : " الريح العقيم " (١) ، " اليوم العقيم " (٢) ، " بَلَغَتِ الْقُلُوبَ الْحَنَاجِرَ " (٣) ، " يَرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ " (٤) ، " وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالْشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ " (٥) ، " غَمَرَاتِ الْمَوْتِ " (٦) ، " طَائِرِهِ فِي عُنُقِهِ " (٧) ... إلخ .

(١) سورة الذاريات / ٤١

(٢) سورة الحج / ٥٥

(٣) سورة الأحزاب / ١٠

(٤) سورة التوبة / ٣٢

(٥) سورة الإسراء / ١١

(٦) سورة الأنعام / ٩٣

(٧) سورة الإسراء / ١٣

نتائج البحث

في ختام هذا البحث يجدر بي أن أقدم عرضاً موجزاً يتضمن أهم النقاط التي تناولها البحث ، وما توصل إليه من نتائج .

اقتضت طبيعة هذا البحث أن أمهد له بالحديث عن مصطلح المبالغة ومفهومها عند القدماء ، ما تعلق بها من مصطلحات ، وتناولت علاقتها بالصدق والكذب ، وعلاقتها بالمستحيل والممتنع والممكن ، وأبنت ما تفرّدت به مبالغات القرآن .

كذلك أظهرت الدراسة أن المبالغة ثابتة في القرآن الكريم كله في الصيغة والتركيب والتصوير ، وأنها بلغت الغاية في كل ذلك ، وذلك دفعاً لما أنكره بعض الناس من وجود المبالغة في القرآن .

كما ألمحت الدراسة إلى الإعجاز اللغوي ممثلاً في معنى المبالغة في بعض أسماء الله الحسنى ، ووصف النفس البشرية ، ووصف الشيطان ، ووصف النار ، كذلك تمّ إلقاء الضوء على أداء المبالغة في بعض المسائل الفقهية ، وكشف النقاب عن بعض الخصائص العامة للمبالغة في القرآن الكريم .

ومن هنا تندفع الشبهة القائلة بإنكار المبالغة في القرآن الكريم ، وأحسب أن يكون البحث قد قدّم أدلة جوهريّة ، وطرائق فنية متعددة من صلب آيات القرآن الكريم دالة ومشيرة إلى حتمية المبالغة ورسوخها في بلاغة القرآن الكريم .

ويمكن استخلاص نتائج البحث في النقاط الآتية :

١- وردت جميع المبالغات في القرآن الكريم قوية جزلة ، تحمل جميعها تفرّداً ، وتميزاً مبايناً لكلام البشر ، فهي لا تنبؤ عن ذوق ، ولا ينكرها عقل ، وكلها من المبالغات الحسنة المقبولة التي سلمت من الاضطراب ، والزيغ ، ومن الإسراف ، والزيّف .

٢- الصيغ القياسية التي وردت لها أمثلة في القرآن الكريم هي :
فَعَّال ، مِفْعَال ، فَعُول ، فَعِيل ، دون فَعِل فلم يرد لها أمثلة في
القرآن الكريم .

٣- الصيغ السماعية التي وردت لها أمثلة في القرآن الكريم هي :
فَعَّال ، فِعِيل ، فَعْلَة ، فَعُول ، فَعْل ، فَيَعُول ، فَعِيل دون فَاعُول
ومِفْعِيل إذ لم يرد لهما أمثلة في كتاب الله عز وجل .

٤- تبدو المبالغة واضحة في الأساليب الإنشائية سواء أكانت طلبية
أم غير طلبية وكذلك الأساليب الخبرية ، فكل أسلوب ارتقى عن
المستوى المألوف المباشر العادي يصلح مادة للمبالغة يُبحث فيه
عن مزيته وفضيلته والإبداع الكامن فيه .

٥- تعد المبالغة جوهر الصورة الفنية وروحها ، ويُعدُّ عبد القاهر
الجرجاني أكثر البلاغيين الذين مزجوا المبالغة بكل فنون البيان ؛
فالصورة - عنده - مرهونة ببلوغ المنتهى فيها .

٦- المبالغة مبنوثة في المعاني كلها القريبة ، والبعيدة ، وهي كذلك
منوطة بالممكن ، والممتع ، والمستحيل ما توفرات شروط
الإجادة ، وهي الصدق الفني ، وبراعة استخدام الفنان للأدوات ،
وعدم صدمه لثوابت الناس ، واقتناع المتلقي بها ، وتمثلها
للموقف أعظم تمثيل بحيث لا يغني عنها سواها .

٧- المبالغة في أسماء الله الحسنى منوطة بالمتعلق لا بالاسم ذاته ،
لأن أسماء الله ثابتة لا زيادة فيها ولا نقصان .

٨- لا زالت المبالغة في القرآن الكريم تحمل طرافتها وجدتها ، وهي
كذلك أبدًا ، فلا هي قريبة الوضوح ، مكشوفة لكل قارئ ، ولا
هي مُلغزة معضلة ، بل هي تكشف نفسها بعد بذل جهدٍ قليلٍ
من القارئ ليدرك جمالها ورونقها ، وما كان ليتم هذا للمتلقي إلا
بعد إحداث التفاعل الوثيق بين النظم المعجز والجهد الذي يبذله
لفهم التنزيل وإدراك مغزى التأويل .

٩- قيمة المبالغة ، ولفتها الفني منوط - دائماً - بالفكرة والأسلوب وجودة التصوير ، فالمبالغة ممزوجة بخصائص اللغة أبداً ، بينما قد تضمحل علاقتها - مثلاً - بمناسبة النزول .

١٠- ليست طرائق المبالغة بصيغها وأساليبها وصورها تزيداً في التعبير ؛ لأنها ليست مجرد تنويع للأسلوب ، وتزيين له ، بقدر ما هي متغلغلة في مضمون الحدث ، مُترسّخة في جوهر المعنى ، متأزرة مع جمال الصورة بكشف أبعادها وبيان مناسبات إعجازها .